وسط العاصمة حانة مسحورة

ساندرا تربونيّة

Telegram:@mbooks90

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساندرا تربونيّة

في وسط العاصمة حانة مسحورة

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

جميع الحقوق محفوظة©

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإهداء

إلى أمي وقيس.. لأنكما الوجهة حين تتهاوى عقارب الساعة وأرقامها.

إلى أمل.. أرفع نخب تلك الأغنية البحاء وآلاف السجائر المحترقة وسنوات من الأرق.

إلى بلقيس وخديجة وبثينة.. متمرسات في فن الاحتراق..

إلى نضال وأيمن وإيهاب وعلي.. لأن الأشرار لا يغنون..

وشكرا لكل من أوقد النار فيّ يوماً.. من الجميل أن أكون امرأة محترقة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا

كعاشقٍ خطّ سطراً في الهوى ومحا»

بشارة الخوري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة الأولى

كان المساء قد أخذ في الحلول على شارع الحبيب بورقيبة(1) الطّويل. وكان الطّريق مكتظّاً بجحافل سيّارات الموظّفين المحتشدة في صفوف عبثيّة. وكان مستحيلاً ألاّ يفكّر شخص عاقل بفرح خفيّ في عدم امتلاكه سيّارة. كانت تمضي في خطوات سريعة مبتسمة في تشفّ وهي تتخلّل ثنايا الازدحام في خفّة مستفزّة. للعاصمة طعم آخر عندما يسارع المساء في اقتحامها متهوّراً، مزاحماً كلّ من قضوا يومهم مهرولين بين العمل والآخر، محدّقين إلى ساعات أيديهم الصّينيّة الصّنع أو السويسريّة الماركة، والتي لا تزال شيكات استخلاصها الشّهريّة تثقل ذهن صاحبها حتّى يوفّق بينه وبينها.

كان هذا الجزء من اليوم المكافأة التي تعد بها نفسها كلّما أثقل كاهلها شيء أثناء يومها الطّويل، شأنها في ذلك شأن الكثيرين. وكان عفر الأزرق اللّيليّ قصيراً. دائماً يزاحم قِصَرُه المكافأة اللّيليّة. وكان الرّهان اليوميّ مطروحاً كعادته: كيف توفّق بين الحياة المزدوجة التي تعيش، وبين.. لم تكن تدري يوماً ولكن كلّ ما كانت تعرفه هو الحاجة الملحّة التي كانت حياتها تتوسّلها منذ الأبد في التّوفيق بين حياة مزدوجة وأمر لم تكن قادرة على تبيّنه. لم تكن تعرف ماذا تقصد بالحياة المزدوجة: لا كيفيّة الخروج عنها ولا تجلّياتها ولا حتّى أسبابها.

وخلال هذا المساء، كلّ ما كانت على يقين منه، هو عدم رغبتها في ملاقاة أيّ كان كالعادة. كلّ ما كانت ترغب فيه هو أن تسكن إلى ركنها الغريب في الحانة المسحورة من دون أن تضطرّ إلى تحمّل أيّ نوع من التقريع أو اللّوم أو النّقاش في هذا الموضوع. كلّ ما كانت تأمل فيه هو أن تسكن إلى ركنها ذاك في سلام، من دون أن يلحظها أحد ومن دون أن يشتمها أحد. وما كانت لتبالي لو سمعها أحد، لم تكن تمانع البتّة لو كان وجودها في الكون لا يعدو أن يكون صوتاً. كلّ ما كانت ترجوه، هو أن تتحوّل إلى صوت، صوت قيثارة بيس تحديداً. كانت حاسمة في هذا الخصوص. قيثارة بيس فقط حتّى لا ينتبه لها أحد، وحتّى تختفي من جلبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبواق السَيارات النكراء، ومن الأصوات الهاربة من أسطواناتها الداخليَة المخبأة في ترتيب مرضيَ ألفبائيَ لا أبجديَ. أنهكتها جلبة السَيارات الخارجيَة وجلبة الأغاني النَابعة منها داخلياً، فحثَت خطاها نحو الحانة.

شعرت بهاتفها يرجَ داخل جيب معطفها. ردَت على عجل، وأخبرته أنها في طريقها إلى البيت، ثمَ أغلقته. لم يكن سوى من تصطلح على تسميته «صاحب الظَلَ الطويل». انعطفت إلى طريق «ابن خلدون»(2) المتفرَع من الشَارع الكبير، كان زحام السَيارات فيه أقل حدَة، اشترت عدداً من السَجائر من محلَ الفواكه المجفَفة، وعرَجت على الزَقاق الضَيَق، واتَجهت نحو الحانة المسحورة. حيَت البوَابين الضخمي الجثَة فابتسما. كانا يعرفانها. وضعت يدها بعجلة على البلَور البارد لتدفع الباب المرتدَ، فنجحت أغنية (3) «fast car» خلال ذلك في اختراق حذرها، وبدأت بالعزف المنفرد في رأسها.

كانت أغنية واعدة، تعجَ بالإمكانات، ولم يكن الوقت حقاً ملائماً لهذا النَوع من المراوغات. ففي زمن ماض كانت قد مارست مع أحدهم الحد الأقصى من الإمكانات. ضاقا ذرعاً بالغارات بينهما. قرَرا الهرب من الشَكل الذي اتَخذته حياتهما اليوميَة فرادى: معلوم الكراء(4)، محلَ إليسار من الثَورة، ثمن التَنقَل، مقتل شكري بالعيد، وردود الفعل السَياسيَة التي تلته، شهريَة تموت في غضون أيَام من رؤيتها النَور، مقارَ كثيرة لأحزاب كانت سرَية، أحلام موؤودة، نقابتان في كلَ مكان... كان قد أخذها حلماً إلى مكان بعيد، كان هو بحَاراً وكانت هي عاملة في متجر. وكانا قد تركا كلَ ما يعرفان وكلَ ما كانا قد عرفا من رؤى، وكلَ ما عرفا من خيبات وخيانات وانتظار، ورحلا من دون أن يلتفت أحدهما إلى ما وراء الشَبق. كانت الحياة تستحقَ عناء المحاولة في تلك الأثناء، وكانا يرغبان في الحياة بكلَ ما أوتيا من قوَة، وكانت تؤمن به لحظة الاختيار. فلو كانا معاً لكانت الحياة تستحقَ عناء المحاولة. ووضَبت متاعها.. كان حلماً جميلاً، وكانا على علم أنَهما إن لم يرحلا تلك اللَيلة، فالغد سينقضَ عليهما ولن يفسح المجال. وانقضَ الغد ومات المجال.. كان دائماً في حاجة إلى إثبات أمر ما لأحد ما.. وكان دائماً ما ينكر حاجته إلى إثبات أمر ما لأحد ما، أو قدرته على إثبات أمر ما لأحد ما..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«fast car» أغنية مفعمة أملاً.. أغنية تغمرها حزناً، أغنية تنتمي إلى القائمة الحمراء، وكانت تكره الجزء المتعلّق بالأمل فيها وفي الأغنية.

دخلت الحانة، وكانت الأغنية في هذه الأثناء تنتهي منها وتعاودها، وكانت تسخر من سذاجة الأمل الذي كرّست جهودها لاغتياله، وكان المكان مكتظّاً، أضواؤه مخفّتة، والدّخان السّابح في جوّه يغمر رؤاده حتّى الرّأس، حتّى السّقف. وكانت العيون تذبل أو تسهم أو تنتفض في حالة إنكار، وهي تسعى إلى إيجاد حلّ لأزمة القطيعة بين «المثقّف العضويّ» و«العامّة»، وللبحث عن إجابات عن أسئلة استعصت على أذهان منظّري القرن العشرين. بين هذا وذاك كان ما تحبّ.. أن تضيع وسط الحشد، وأن تفقدها الأغنية بين العيون الذّابلة والسّاهمة والمكابرة.. ولم يكن أحد ليفهم سرّ علاقتها بهذا المكان.. ولم يكن أحد ليشاركها حبّها هذا المكان..

تقدّمت وسط الطّاولات الخضراء باحثة عن ركنها الظّليل، كانت ترغب في التّخلّص من حقيبة ظهرها الثّقيلة التي لم تعد تقدر على تحمّلها. وكانت ترغب في التّخلّص من كلّ أثر له فيها، أيقظته الأغنية اللّعينة. كان على الأغنية أن تقطع أوتار قيثارتها وتنتحر داخلها. عرضت عليها شاشة ذهنها «ترايسي تشابمن» تغنّي والدّماء تنضح من حنجرتها المذبوحة، وكان الميكروفون ملطّخاً، وكانت السّيّارة المذكورة قد انحرفت عن الطّريق وارتطمت بجبل صخريّ ومات من بداخلها. ووجدت نفسها تتساءل: كيف تلطّخ الميكروفون؟ وانفجر بالون علكة أحد الزّبائن «بق!». فابتسمت.

وابتسم ابتسامته الجانبيّة لمرآها. وفقدت كلّ مرح اعتراها. كان هناك واقفاً عند الكونتوار. وأصبح ثقل حقيبتها لا يطاق، وضجّت الدّماء داخلها، واعترتها حمّى مباغتة، ولم تعد عضلة قلبها تدري إن كان عليها أن تضخّ الدّماء يميناً أو يساراً. ولم يكن قد حوّل بصره عنها. كان عليها أن ترتّب بعضاً من الفوضى. وتخيّرت لنفسها البوكر فايس(5)، وفكّرت سريعاً في كلّ الإمكانات المتاحة أمامها، ثمّ تقدّمت نحوه في ثبات. حيّاها في حرارة، ولم يتخلّ عن ابتسامته المراوغة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ها أنت هنا مجدداً! ألم أطلب منك ألّا ترتادي المكان بمفردك البتّة؟

فنزعت حقيبتها ووضعتها أرضاً، وكان بنطلونه الدّجين اللوفيس الفاتح اللّون القديم. خلعت معطفها متجاهلة سؤاله:

- ها أنت!

رتّبت متاعها وتناولت كرسيّاً طويلاً، وجلست إلى جانبه عند الكونتوار، وطلبت قارورة سيلتيا(6). لم يحوّل بصره عنها طوال الوقت. وكانت تبحث عن فرصة حتّى ترتّب إيقاع دمها. أشعلت سيجارة، ثمّ التفتت لتقابل وجهه المتوهّج، فسألها مفترساً كلّ حركة من حركات قسمات وجهها:

- أين صاحبك؟ كيف سمح لك بالمجيء وحيدة إلى هنا؟!!

وكان قميصه الأحمر المجعّد.

- لديه عمل هذا المساء.

فغمغم ساخراً، وهزّ رأسه في بطء متظاهراً بتصديقها:

- مممم..

وأشاحت بوجهها عنه، حتّى ترتّب ما تبعثر منها. كانت كلّ أركانها تنتفض في غضب، ولم تكن تعرف: هل كانت ترمش؟ وهل كانت ترمش بشكل صحيح؟ وكان عليها أن تجمع كلّ الشّتات، وهي تتناول القارورة التي وضعها النّادل أمامها، وتفرغ بعضاً منها في فمها.

لم يكن قد حوّل بصره عنها، كان يتفرّس في كلّ تفصيل من تفاصيل وجهها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجانبيّ من دون تحفّظ، فحدجته بنظرة حادّة أن كُفّ، فضحك بإيجاز ونفض رأسه في شكوى متظاهراً بالعجز مغمغماً:

- رهان.. يا رهان..

فتناولت قارورتها، فسارع بتناول قارورته، ورفعها قليلاً واقترح نخبا متحدّياً:

- نخبك!

وبالكاد قارعت قارورتها قارورته في عدم مبالاة جليّة، حتّى باغتها، وقد غابت كلّ معالم المرح عنه:

-أحقّاً تقطنين معه؟

كانت تعشق النّجوم في عينيه عندما تتمازج، ولون الجعّة التي لم تعشقها يوماً إلّا للمماهاة الموجودة بينها وبينه.. لطالما رجت لو تتمازج معهما.. لطالما رجت أن تفهم سرّ الشّهاب الذي يزوره عندما تسكنه الجعة مساء.. واعتقدت أنها إذا جارَته ستلتقي الشّهاب وتحقّق الخارق.. وجارته وما التقت الشّهاب.. لو فقط يهبها إيّاه لتحلّق بعيداً منه..

فقالت، مشيرة إلى علبة سجائره المعهودة:

- اللّيجير(7) مضروب. كيف يمكنك أن تدخّنه؟

وأفرغت بعضاً من جعتها في فمها سريعاً، وابتسمت في استفزاز، فاستعاد مرحه السّاخر على الفور.

اقترب منها ووضع مرفقه على الكونتوار ثمّ أسند ذقنه إلى يده وباتا وجهاً لوجه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغمرتها أنفاسه، وقال:

- مازالت تسريحتك كما هي لم تغيريها بعد، ولكنَ السواد فوق عينيك أكثر كثافة من المعتاد.. حدثيني عمَا يقلقك، تعلمين أن بإمكانك أن تخبريني بكلَ ما يخالج نفسك..

فانفجرت ضحكاً.. كانت حياتها مضحكة بشكل مريع!

ولم يبدُ عليه الانزعاج من ضحكها، بل تناول ابتسامته الجانبيَة مجدَداً وأطرق.

لا أكاد أصدَق أنَك تمكَنت من إضحاكي بعد هذا اليوم العصيب!

ثمَ مسحت رأسه مبعثرة شعره:

يا لك من شخص لطيف!

وأكملت ما تبقَى من جعة، وأسدلت رجليها في خفَة على الأرض، ولم يُفاجأ برغبتها السَريعة في الرَحيل:

- سترحلين؟

فأجابته مرتدية معطفها:

- لقد سمعت أنَ الوقت عندما يبلغ هذه السَاعة من اليوم يعتبر متأخراً.

- وماذا في ذلك؟

- يصبح ثمن سيَارة الأجرة مضاعفاً. عمتَ مساء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فضحك وعدّل من وقفته في لباقة، وسوّى شعره وتناول يدها وقبّلها في فروسيّة ساخرة، وقال:

- تصبحين على خير أميرتي.

- شهم كعهدي بك.

وتناولت حقيبتها، وتأرجحت قليلاً بفعل ألم ملامسة حزامها كتفها المتورّمة، وابتعدت عنه في خطى ثقيلة كما كانت تفعل منذ الأزل، والتفتت إليه قبل أن تجتاز الباب، وكان رأسه مائلاً وهو بصدد إشعال سيجارة، وكان شعره الذي أخذ في النمو مجدّداً كثيفاً ومبعثراً على غير هدى.

تردّد الباب كثيراً خلفها قبل أن ينغلق. وكانت خطواتها ثقيلة، والرّيح حادّة تلك اللّيلة. ضمّت يديها واحدتهما إلى الأخرى وحثّت خطاها الثّقيلة بعيداً منه في صعوبة. كانت تحترق في هدوء. لطالما كانت امرأة حزينة.

فقط لو كان يحقّ لها أن تقول كلمة أخيرة قبل أن يقيم ذلك السّدّ بينه وبينها؛ فقط لو كان يحق لها أن تقول تلك الكلمة؛ فقط لو تعثر على زقاق لم يكتشفه بعد؛ فقط لو يمكنها أن تعثر على شقّ وحيد نسي أن يملأه؛ فقط لو تعثر على أيّ تفصيل صغير، أيّة نافذة سريّة؛ فقط لو تمدّ أصابعها فتتمكّن من تلمّس تلك الهالة من الطّاقة الحمراء المحيطة به؛ فقط لو كان بإمكانها أن تلجه؛ فقط لو يتسنّى لها التّسلّل ليلاً من تحت الباب من ذلك الشّقّ الضيّق غير المرئيّ الفاصل بين الباب والأرضيّة؛ لو يتسنّى لها أن تكتب كلمتها الوحيدة وأن تدفعها تحت الباب في ظرف تخرج هي منه عندما يفتحه. ولكن.... لم يكن هناك من عنوان بين رسالتها وبينه؛ وكانت رسالتها ستظلّ مفتوحة على مصراعيها من دون أن تلج أحداً، ومن دون أن يلجها أحد، ومن دون أن تشرب، ومن دون أن تذوب، وأن تذوّب كقارورة جعة اقتلعت منها قبّعتها الذّهبيّة قبل الأوان بقليل، أو بعد أن فات الأوان بقليل. وفي كلّ الحالات ما كانت لتكون كلمتها غير «كدت أن..». وكانت تلك الـ«كدت أن» قد عرفت كلّ السّبل المتشعّبة إليها جنوباً وشرقاً ومساءً وصباحاً وماضياً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومضارعاً. وكانت قد قلَبت كلَ وجوهها. وكانت الكلمة تستهلكها وتحرقها وتقضم في كلَ تقلَص نبضاً منها. وكان ما كان. وأضحى الأمر منذ دهر ما كان عليه. وتحوَلت كلَ الضَخَات إلى قصص وخرافات نثر قديم يعود إلى عصور المشافهة، وأمست حياتها منذ أن كفَت عن النَبض مجموعةً خياليَة من محاولات قصَ قديمة تبدأ بعبارة «يحكى أنَ»، وكانت تفضَل أن تقرأها «زعموا أنَ»..وتحوَلت حياتها إلى نهر من الحزن المرير..

كانت قد قطعت مسافة مبعثرة قبل أن تعرف أنها كتلة لزجة تسيل في فضاء ثلاثيَ الأبعاد، انسكبت عليه محبرة زرقاء بسبب سوء تصرَف مرفق أحدهم، كانت تجهل السَاعة والمكان. رمت بقلنسوة معطفها الكبيرة على رأسها، وعدَلت من وضع حقيبتها الثَقيلة، وحدَقت إلى الشَارع الجانبيَ الذي تسير فيه، ثمَ فتحت هاتفها وطلبت من «صاحب الظَلَ الطويل» أن يلقاها في حانة الـ«جي إف كا».

لم يكن شارع الحبيب بورقيبة قد خلا من المارَة بعد، وكان عدد من روَاده لا يزال يقبع في المقاهي المتناثرة على ضفافه، وقد تراكمت الطَاولات تحت المظلاَت درءاً للأمطار المنسابة في خيوط هادئة. كانت تعرف الكثيرين منهم، حاولت أن تظلَل وجهها بطرف قلنسوتها، وأن تسدل بعضاً من خصلاتها المبتلَة على طرفي وجهها وحثَت خطاها.

كان شارع «مرسيليا»(8) أكثر برودةً من بقيَة الشَوارع. ففي ليالٍ كثيرة كانت لها بدايات فيه، وفي ليالٍ كثيرة لم تكن تمسي إلَا لتبحث عن أشلائها المتناثرة تحت وقع اللَيلة السَابقة لها. وما كانت لتقدر على تجاهل مرأى الأطراف المبتورة المتناثرة هنا وهناك بين زواياه، إلى جانب كيس قمامة أو خلف سيَارة مركونة، أو تحت عمود إنارة. وأملت أن يعترضها أحد ما ليسألها إن كانت قد تعثَرت بأحد أشلائه أثناء قدومها حتَى تهديه إليها.

وصعدت الدَرج الملتوي حذرة، فقد كانت دائماً تخشى الانزلاق نحو أمر ما بكلَ كيانها، وكانت تتقهقر وجاذبيَة حقيبتها تتلاطم داخلها. وكان هناك زوج ينزل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الدَرج مترنّحاً وبعضه يساعد بعضه، وقهقهاته تقطّع درجات الدَرج إلى قطع غير متوازنة، وأسندت يدها إلى الحائط الجانبيّ طلباً للمساعدة. وما إن وصلت إلى المكان، حتّى طأطأت رأسها متجاهلة رؤاد الطّاولة الأولى الماثلة عند الباب. سارعت قدر استطاعتها في تخطّي الطّاولات باتّجاه الحمّام لتعالج وجهها قبل وصول «صاحب الظّلّ الطويل». ولم تُفاجأ بمرأى أحدهم يغادر حمّام النّساء، فالعالم هنا ينقلب رأساً على عقب، وقد ينسى أحدهم أيّ عضو تناسليّ يحمل تحت سرواله.

دخلت على إثره وأحكمت إغلاق الباب وراءها. كان قفا الباب الورديّ الفاتح الإباحيّ قد كتبت عليه العديد من الشّتائم للأحزاب السّياسيّة وللحركات الاجتماعيّة على اختلافها. وبين ثنايا الشّتيمة والأخرى قلوب معوجّة تحمل داخلها أولى حروف حبيبين مجتمعة أو أرقام هواتف تحتها أسماء صاحباتها أو أصحابها مرفقة بشتّى النّعوت من قبيل «رياض جربوع» أو «رحاب سيدا».

التفتت إلى المرآة، ومسحت الدّمع الأسود الذي كان قد جفّ على وجهها، ثمّ نزعت عن شعرها القلم الجامع له، ونفضت رأسها مبعثرة خصلاته السّوداء في كلّ الاتّجاهات، ثمّ قلبته كلّه إلى اليسار جاعلة منه غرّة كثيفة. فقد أخبرها أحدهم أنها كلّما كثّفته إلى جانب بعينه نافية التّوازن بدت أكثر قوّة، ثمّ أعادت رفع بعض من شعرها أعلى رأسها في شكل مبعثر مستعينة بقلمها. كانت تسريحة شعرها الأسود تجعلها تشبه الغجريّات الأندلسيّات. وكان يحلو لها هذا التّشبيه. فربّما كان توأم روحها غجريّاً مجنوناً يجيد رمي الخناجر واللّعب على القيثارة. أعادت رسم الخطّ الأسود الغليظ فوق عينيها. بلغتها طَرَقات متسارعة على الباب، ففتحته وتركت المكان لفتاة مترنّحة لم تلحظها.

كانت تعرفها. فقد قامت ورفاقها باستضافتها مع آخرين كثر لقضاء ليلة عاصفة في خيمتهم أثناء اعتصام القصبة(9). كانت في السّابق فتاة حادّة ذات سروال عسكريّ وكحل كثيف ونبرة وقّادة. وكانت قد استيقظت فجراً على صوتها الثّاقب ولكنتها الرّيفيّة وهي توقظ رفاقها ليحيّوا العلم. وكان من الواضح أنها تحبّ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت قد أصرّت على إيقاظه قبلهم في حزم عنيف. بلغها فيما بعد أنهما أصبحا على علاقة، وسعدت في خفّة لهما. وهاهي تتعثر بها هذا المساء، وقد تلوّن شعرها بشقار باهت يناشز السمراء فيها. كانت واثقة أن الرّجل قد خذلها أو أنها هي التي خذلته. لا شيء يمكن أن يقلب حياة المرء أكثر من الخذلان الذي يتساقط على البلاد كفوسفور أبيض خلال انتفاضة ما.

تخطّت الطاولات مرّة أخرى، وكانت تبتسم لمعظم الروّاد الذين كانت تألفهم أو تعرفهم أو تلقاهم أثناء يومها عدداً من المرّات، تفقد معه التحيّة معناها. اتّخذت طاولة محاذية لمساحة شاغرة صغيرة كثيراً ما كانت تعتبر حلبةً رقصٍ، وراحت تحدّق إلى بعض الراقصين، وهم يحاولون أن يرقصوا بشكل موازٍ لإيقاع (10) «them crazy» من دون التمكّن من ذلك. فقد كانت حركاتهم ثقيلة تماماً كما كان العالم الجاثم عليهم في تلك اللّحظة. وراحت تضرب برجلها الأرض موقّعة، لعلّ حركاتهم تستجيب للأغنية العابثة.

كانت حانة الجي إف كا ذات صيت يروي قصصاً عن الزّمن الغابر الذي كانت تجتمع خلاله الأفكار اليساريّة والشّيوعيّة فيها. ويروى أنها كانت نبض المعارضة في تونس. ولكن شاع أيضاً أن كلمة «مسّخ»(11) قد أضحت لصيقة بها بعد الثّورة لما تخلّلها من بوليس سياسيّ، ومن ميليشيا تحاول أن تستفزّ الرّوّاد للإيقاع بهم ولتلفيق التُّهم لهم أثناء عراك يفتعلونه في نهاية السّهرة عادة. وقد يبلغ الأمر أحياناً درجة التقاط صور للرّوّاد المنخرطين في حراك اليسار لتشويههم. وقد كان هناك العديد من الأحزاب التي تمنع على شبيبتها ارتياد المكان، وقلّما كانت الشبيبة تنصاع لهذا القرار بالذّات. فلهذه الحانة جاذبيّة لا تضاهيها أيّة حانة أخرى، والأمر لا يتعلّق بالشرب وحده هنا. فالذّوق الموسيقيّ الذي يحرّكها كان يضاهي إيقاع نبض العديد من سكّانها. وكانت الأغاني التي تتلقّاها هنا تماثل الأغاني التي تسمعها وحيدة واضعة سمّاعتيها في غرفة من بيتها أحكمت إيصاد بابها. كان الجي إف كا حديقتها السّريّة. وكان دائماً يتمكّن من تسليط الضّوء على الجانب المضحك من الحياة. وكانت قد عرفت فيه الكثير من الأمور التي أضحت قطعة منها تحملها حيثما حلّت. وكان يكفيها أنها تلقى فيه الشّعور بالانتماء. فقد كانت فيه تنتمي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ريثما تعبرها لحظة أخرى. كان الشعور بأنها لا تنتمي هو الذي يغلبها هنا. وكان يغدق على رقصات من يرقص وعلى طريقة احتساء من يحبَذ الكأس أو من يختار أن يكون على علاقة مباشرة بالقارورة على حدَ سَواء.

قامت بإشعال سيجارة في الانتظار. كانت قد هجرت هذه الحانة منذ زمن بعيد واستبدلتها بأخرى.. كانت مضطرَة إلى هجر العديد من الأمور منذ أن هجرتها معاني كلَ الأمور. فقد كانت حقيقة هجر المعاني لها أمراً موجعاً. وكان الوجع أحد تلك الأمور التي لم ترحل. وكان ممتداً فيها ومتجذراً يحيا في سلام، ولكن أحياناً قد تتقلَص ثنايا جذوره الضَاربة في كلَ خلاياها. فتتقلَص كلَ قطعة فيها تحت وقع الألم، كما يحدث عندما يقع بصرها للوهلة على اسمه المنقوش على الطَاولة أمامها.. كانت قد نقشت حروفه بواسطة مفتاح بيتها على الطَاولة.. كانت ليلة لئيمة تعود إلى زمن بعيد بمعيار علم الفلك. وانقبضت كلَ ملامح وجهها وضاقت عيناها وكفَت رجلها عن التوقيع.

كانت قد عثرت عليه أثناء تلك اللَيلة بعد أيام من البحث ومن محاولات الاتَصال بكلَ من يعرفه. وكان قد وافق على الالتحاق بها بعد محاولات إقناع مثابرة. وأتى بقميصه المخطَط الأسود والأبيض، واضعاً قلنسوة قميصه على رأسه ويديه في جيب القميص الفضفاض. وكانت أوَل مرَة في حياتها تلتقي خلالها والبوكر فايس على وجهه.

- كيف حالك؟

وشعرت بيدين تحطَان على كتفيها، ولبست البوكر فايس بدورها، ثمَ التفتت إلى «صاحب الظَلَ الطويل»، وابتسمت مجيبة:

- بخير.

فعانق ظهرها بحرارة، وجذب كرسيَاً وجلس قبالتها وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد قلقت كثيراً عليك. أين كنت؟ لماذا لم تعودي إلى البيت كما أخبرتني؟

- عدت إلى البيت ثمّ غادرته.

لمح حقيبة ظهرها، ثمّ ابتسم في مرح وقال:

- هل طلبت شراباً؟

- ليس بعد.

- سأحضر لنا شراباً وأعود.

ووقف في مكانه، ثمّ أخرج من جيب سترته قرطاساً وقدّمه إليها:

لقد أحضرت لك نوعك المفضّل من الفواكه المجفّفة.

فسألته ساهمة:

- مع لوز؟

فقطّب في حيرة:

- كاجو.

وانسحب نحو الكونتوار، وعاودتها الذّكرى:

ما إن جذب كرسيّاً وجلس بجوارها حتّى قالت:

- لقد بحثت عنك في كلّ مكان. ماذا حلّ بك؟ أين كنت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كنت في مكان ما مستلقياً لا غير.

- ماذا تقول؟!

- كنت مستلقياً في مكان ما.

- لم أفعل شيئاً منذ ثلاثة أيّام غير البحث عنك.

إذن فقد قضيت أيّاماً ثلاثة مستلقياً على ما أظنّ.

ما الذي حلّ بك؟ لقد كدت أجنّ قلقاً عليك. هل تعرف ما معنى أن يجنّ أحدهم قلقاً بسبب آخر مستلقٍ؟!!

- كلّا، لا أعتقد أنّه سبق لي أن قلقت على شخص مستلق.

- كفّ عمّا أنت بصدد فعله!! كفّ عمّا أنت بصدد أن تمسي عليه!!

- أكفّ عمّ؟

- عن أن تكون شخصاً لست عليه.

- لست أفهم عمّا تتحدّثين؟

- لست أوان.

- أعلم ذلك.

- أنت لا تعلم ذلك!! لست أوان!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وراحت تنقش اسمه في عنف على الطاولة.

وعاد محمّلاً بأربع قوارير سلتيا. كانت اثنتان منها مفتوحتين، بينما ظلّت الأخريان معتمرتين الغطاء الذهبيّ. ووضع القوارير على الطاولة وابتسم، ثمّ أخذ يدها في حرارة بين راحتيه، وراح يلاعب أصابعها. تناولت في هذه الأثناء قارورة وأفرغت الكثير منها في جرعة واحدة. كانت حدقتا عينيها تتّسعان أكثر فأكثر مع كلّ نفس، وكان المشروب يغرق فيها، وكانت تغرق فيه. وراحت تغيب شيئاً فشيئاً كلّما امتدّت يدها نحو القارورة من جديد، وكان الصّخب حولها، وكانت يداه تطوّقان يدها، وكانت ما يشبه حلبة الرّقص وكانت أمور كثيرة.. ولم يكن لأيّ أمر أيّ معنى، وتذكّرت تعريف الضّجر في رواية «مورافيا»: «هو أن يكون المرء على قطيعة مع كلّ ما يحيط به» وكانت امرأة منبتّة.. كانت امرأة داخليّة، المعنى ينبض وجعاً داخلها، ولم تكن على علاقة بكلّ ما يتجاوز بينها وبينه. كان «صاحب الظّلّ الطويل» أمامها، وكان يتحدّث وكانت ترى شفتيه تتحرّكان، وكانت ترى أخرى تضاحكه وتغازله، وكان يحرّك يديها مردّداً أمراً ما في إصرار، وكانت الأخرى تبتسم وتغيب في الذّكرى:

- هذا هو اسمك منقوش هنا. هذا أنت!! أنت رجل منتفض!! فعد إلى السطح!! أتسمعني؟!!

كانت تنفض يديه وتبحث عن نافذة ربّما نسي إحكام إغلاقها حتّى تتمكّن من التّسلّل إليه من خلالها. وكان يحدق إليها وكأنّما هو غير قادر على تبيّن مدلولات ما تقول. وكانت راحتا يديه باردتين، وأخذت يده وجعلته يتحسّس الاسم المنقوش وقالت:

- هذا هو اسمك. والدك هو الذي أهداك إيّاه لتعصف بأرجاء الكون وتنفجر وتعيد للعالم المعنى. انتفض!عد إلى السّطح! وكلّما غرقت مجدّداً تعال وابحث عن اسمك بين الطّاولات ولامسه، حينها ستعرف من أنت! هذا هو اسمك! فلا تدع أحداً يسرقه منك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانسحبت يده في عنف ورأته يدفنها في جيب قميصه، وحدَق إليها في شرر ورهبة وتهديد، ثمَ انتفض عن كرسيّه وغادرها في خطى مهرولة. وراحت تنقش اسمه وتثبته أكثر فأكثر على الطَاولة في إصرار. وسمعت صوت ضحكات نسائية مبتذلة، وحدجت صاحبتها بنظرة قاتلة وعادت إلى عملها.

وصلها صوت ضحكها العالي بعد أن روى لها «صاحب الظَلَ الطويل» طرفة، وضحك معها وتتالى ضحكهما، ولكنَها ما كفَت عن الضَحك، وسكت هو ولكنَها تمادت في الضَحك وضاقت عيناه في استياء. لم يكن يفهم ما الذي حلَ بها، ورجاها أن تكفَ عن الضَحك ولكنَها كانت تضرب بكفَها على الطَاولة والدَموع تنهمر من عينيها، مردَدة نهاية الطَرفة مراراً وتكراراً، وأضحى الأمر واهياً لا معنى له. وأظلم وجهه وجمع أغراضهما عن الطَاولة على عجل، وساعدها على النَهوض، وتأبَط ذراعها وحمل حقيبتها الثَقيلة وغادرا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة الثّانية

كانت تكره الأغنية التي أخذت في الرّنين فجراً، وامتدّت يدها بحركة غريزيّة لتسكت الهاتف. فتحت عينيها في تخاذل.. لماذا لا تزال على قيد الحياة؟ وهذا الجسد الغبيّ الذي لم يفهم أن عليه ألّا يلتقط الأنفاس! أنحت عنها ذراعه. كان رأسها ثقيلاً من وقع اللّيلة الفائتة. وكانت رائحة أنفاسها لا تطاق وكان العالم بؤرة بؤس لا غير.. وكانت الهمزة تثقل الواو أثناء ذاك الصّباح، ورأتها تتأرجح ثقلاً وراحت تتمنّى لو تسقط فتضحي البؤرة بورة والبؤس بوس.. سنَ يأس وقُبَل شائخة وماذا في ذلك..؟ وراحت تلقي بالعبارات في مرح «لؤلؤ»، «بؤبؤ»، «سؤال»، «لؤم»، وراحت الهمزات تتمايل وتتمايل حتّى تقع على الأرض متناثرة في شظايا ضئيلة مخلّفة دويّاً ثقيلاً وقَاعاً. وكانت تبتسم كلّما وصلها صوت الوقوع والتّحطّم فالتّشظّي، حتّى قاطعها صوت صاحبها متمنياً لها يوماً سعيداً، فأجابته بعبارة مماثلة، وحاولت أن تمسح عن عينيها كحل اللّيلة الفائتة، وراحت تثابر حتّى ترتّب أفكارها، وتتذكّر الدّور الذي عليها أن تتقمّصه حتّى ترحل إلى عملها..

كان عزاؤها الوحيد متمثّلاً في تلك الغيبوبة التي تعتريها كلّما دخلت قاعة التّدريس حتّى تضغط زرّ off فيها فيتوقّف كونها الدّاخليّ عن الهدير مدّة قد تبلغ الثّماني ساعات إن حالفها الحظّ.. وكانت تلك السّاعات جزءها المفضّل من اليوم، والمساحة الوحيدة التي تخضع لسيطرتها، فتعلم خلالها أين ستكون من دون الخضوع للإمكانات، وماذا ستفعل ومتى ستنتهي.. من دون الخضوع إلى الإمكانات. وكان الجزء الوحيد الصعب المنال هو ذلك المتعلّق بتوقيت الاستراحة الذي يفصل بين الحصص، وكانت تحتال لتقضيه رفقة طلبتها، حتّى لا تواجه الأنظار المنبعثة من قاعة الأساتذة أو الحماقات التي تصدر عنهم في شأن الرّضع والأحوال السّياسيّة وارتفاع أسعار الحفاض، والوضعيّات الجنسيّة المتّخذة رفقة الزّوج أثناء اللّيلة الفائتة، وحيث عليها أن تذكّر نفسها أنها صبيّة عذراء تعيش رفقة أسرتها يتوجّب عليها كأستاذة جامعيّة أن تسبّ المدخّنات وتلعن السّكّيرات وتشتم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الخوانجيّة» وما يفعلونه بـ«الشّعانبي» والدّعاء بعودة ديكتاتوريّة «بن علي» حتّى يعمّ السّلام، والخروج بحوصلة مختزلة في جملة «ربّي يقدّر الخير وبزّة».

ويغادر الجميع القاعة في اختيال، وكلّ يستعيد تدخّله الرّشيق في نخوة.

كانت امرأة منبتّة من الوريد إلى الوريد. وكانت دائماً ما تقول «حتّى برنوس ما واتاني»(12). وكان اتّصال «صاحب الظّلّ الطويل» الهاتفيّ أثناء الرّاحة عزاء جميلاً، وما كانت ستتمكّن من العيش من دونه، وكان آخر يحيا داخلها.

وغمرت وجهها بحفنة ماء جمعتها بين كفّيها بالحوض في قاعة الاستحمام.. كانت تحبّ قاعة الاستحمام في بيت «صاحب الظّلّ الطويل». كانت قاعة نظيفة بشكل ملحوظ ومميّز. وكانت المناشف ناصعة البياض ولم تكن تفهم سرّ بياضها النّاصع الدّائم، علماً أن الفتى لا يملك وقتاً كافياً لفرك البقع عن البياض. كانت قاعة دائماً يخبرها أنفها أنها معقّمة، وكانت دائماً تعيد الأمر إلى مخيال أنفها وإلى الصّورة التي تصحب الفتى داخله. وكانت النّظافة المميّزة لهذه القاعة أمراً يفرض سلوكات غير تلقائيّة بالمرّة. كان عليها دائماً أن تذكّر نفسها بوجودها في المكان، وبالسّلوكات المفروضة عليها باعتبار أنها فيه.

وراحت تنظّف الحوض إثر غسل وجهها وفرك أسنانها لتزيل عنه بقايا معجون الأسنان العالقة بشكل بارز على ضفافه. وكانت الغرفة عند خروجها منها تنكر في شدّة مرورها بها. كما لو أنها لم تكن.

ارتدت ملابسها على عجل، ونفضتها وجمعت شعرها فوق رأسها بشريط مطاطيّ في حزم، واشتدّ الألم المكتسح رأسها الثّقيل، وأعادت جمع ما جمع بالشّريط في شكل لولبيّ فوق رأسها. لم تكن لتسمح أثناء ذلك الصّباح أن تغادر شعرة وحيدة مكانها، وأن تمازح وجهها. لم تعد تتبيّن الغجريّة فيها. على شعرها لزوماً أن يصلى ناراً ذات لهب اليوم. وغادرت البيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الهواء الصّباحيّ منعشاً في الخارج. وكانت الخيوط الأولى للشّمس تطلّ وتتوارى في خفر مبتذل. صباح غبيّ. فكّرت في عدم الذّهاب إلى العمل ثمّ إرسال تقرير طبيّ. ولكن ما اختبرته من يومها حتّى الآن كان ثقيلاً كفاية ولا يسمح لها بتنبيه ذهنها وتنشيط حواسّها والخروج من حالة التّخدير اليومي التي هي عليها. وتقدّمت نحو محطّة الميترو حتّى تختفي فيها وسط جلبة الرّكاب والموظّفين المهرولين إلى عملهم. كانت تتمنّى لو تختفي من كلّ ما يحيط بها.. أن تتبخّر هكذا فجأة وبكلّ بساطة. ورأت نفسها في داخلها تتناول برميل بنزين وتسكبه على نفسها مرّة واحدة في ثبات.. كانت هذه الرّؤية دائماً تصاحبها، كانت دائماً ترى نفسها واقفة في ثبات حدّ الجمود، ثمّ ترى يدها تحمل البرميل وتسكبه عليها في آليّة، ولم يكن وجهها لا حزيناً ولا متوتّراً ولا مكتئباً. كانت خالية من كلّ تعبير، وقد يعتري عينيها بريق خفيف وكأنّما هي قد وجدت من أجل تلك اللّحظة.. وما كان يبدو لها غريباً هو توقّفها عن الفعل بعد تلك الحركة. فللمخيّلة أن تطير بعيداً وأن تراها تحمل عود ثقاب وترميه فوقها كما فعلت مع البنزين، ولكنّها في خيالها كانت دائماً تقف حيث بدأت وتختفي الرّؤية أو تعاودها في الشّكل نفسه هي والبرميل والبنزين في طور الانسكاب عليها. كانت رؤية خالية من الرّائحة ومن الصّوت، ولكنّها كانت في كلّ مرّة تشعر بالسّائل وهو ينساب في عنف عليها. وكانت تشعر بوقع الغمرة الأولى منه على رأسها، ثمّ يتوالى السّيل المنسكب على النّقطة نفسها حتّى تتخدّر النّقطة ويفقد الوقع عليها المعنى ويسيل المعنى فوق بقيّة أعضائها التي يصلها تحت ملابسها على الخطّ المحفور العموديّ المتوسّط لظهرها، على الشّقّ الفاصل لثدييها، على الخطوط المحيطة بعضلتيها، وقد يصل الخطّ المبتلّ المسافر خلفها حدود شقّ مؤخّرتها فتعتريها قشعريرة ولكنّها لا تكفّ.. كانت امرأة محترقة..

تذكر أن مذكّراتها قد احتوت ذات زمن على تعويذة: «كانت الفوضى تعمّ المكان وكانت تحترق. فقد أوقد أحدهم النّيران في كامل أنحاء الكون الذي حمّلته إيّاه. وبارك هو احتراقها. ومضت في سبيل نفسها. فقد رحل الفتى الأسمر».

كانت تحفظ تلك التّعويذة عن ظهر قلب، تحفظها كاملة، والأمر الذي كان يثير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنونها هو عدم قدرتها على تمثل لحظة احتراقها. كانت تعرف أنها امرأة محترقة ولكنها لا تتمكّن من القبض على لحظة الاحتراق، كانت لحظة الاحتراق لحظة زئبقيَة لا يسعها تبيّنها، لا يسعها إلّا أن ترى ما يسبقها مباشرة وما يليها مباشرة..

وحزكت رأسها ساخرة من نفسها ومن عبارة «مباشرة» التي أخذت تستعملها. واخترقتها رجرجة هاتفها داخل جيبها، كاد يودي بحياتها! وكان صاحبها يسألها إن كانت في طريقها إلى العمل. ليته سألها إن كانت قد تمكّنت أخيراً من تلمّس عود الثقاب الذي طالما لم تتبيّنه فلن تتمكّن من القيام بعملها. هو لم يكن يفهم ضالّتها. وحتى لمَا غامرت يوماً وحدّثته عن تلك المسافة القصيرة التي كانت تركض من دون انقطاع حتى تقفز بنهايتها من أعلى جبل صخريّ توّاقة إلى ملامسة البحر، لم يفهم.. لم يفهم سبب رغبتها في مسابحة البلاط الحجريّ كلّما اشتدّ الحريق في داخلها، وكلّما لاعب الطّفل الذي يسكن تحت جلدها الولّاعة..

لم يفهم لماذا كانت تتوق لتتحوّل إلى سمكة، وصعقتها صورتها في شكل وميض مفاجئ لتعرض عليها نفسها وتعرضه هو وتعرض «صاحب الظّلّ الطويل». ليلة أمس بعد أن عادا من الحانة، كانت قد ارتمت على الأرض الباردة كالعادة مستلقية على بطنها، محرّكة يديها ورجليها، محاكية حركة زعانف السّمكة، جاهدة في فتح حدقتي عينيها وفي فتح فمها وإغلاقه محاكية تنفّس السّمكة. كان قد تعوّد هذا المشهد وكان قد استفسرها مراراً وهي سكرى وهي يقظة ولم يكن يفهم، وتذكّرت أنه كان يحاول حملها عن الأرض، وأنها أخذت تضرب برجليها ويديها في جميع الاتّجاهات وتصرخ:

- أنت لا تفهم. ربّما لو أخبرتك عن تعويذة تصبحك وتمسيك ولا تفارق جدران ذهنك وتسافر بك في عود على بدء من الشّريان إلى الشّريان، لفهمت. قد تفهم، ولكنّ الأمر لا يعنيك.. حسناً قد يعنيك ولكنك لا تستوعب، وحتى إذا تمكّنت من ذلك، فلن تشعر يوماً بوخز التّعويذة عندما تذوب فيك وتمدّك وتجزرك ما اشتهت لتضحيّ منك. أنت لا تفهم عمّا أتحدّث وهذه النّظرة المشفقة المتفهّمة أمر كنت واثقة به.. فأنت لا تحمل في داخلك الوجع الذي يرسمني ويصوغ ملامحي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويوضَب تسريحتي كلَما أمسى صباح جديد عليَ. فدعني أسبح!

وراح يحاول عبثاً أن يحملها مراراً وتكراراً ولم تكن لتكفَ، ولم يكن ليفهم وهي تردعه عنها:

- دعني فالحريق في كلَ مكان.. في كلَ الأنفاس التي ألفظها وفي كلَ العبارات التي أخطَها، وكفَ عن سؤالي فأنا لست بخير. أجيبك للمرَة الألف أنني لست بخير، فدعني! أيَ وصفة ستكتب لامرأة تبحث عن ظلَها؟ ماذا لو أخبرتك أنني بالأمس قد عثرت على سيجارة تحت الجدار كنت قد نسيت إطفاءها قبل أيَام؟ متى تقوم بتشريحي حتى تحرَرني؟ لقد أخبرتك. أنت غير قادر على الفعل بي، فنحن نار وأنت تراب..

وردَدت داخلها مستنكرة «نحن نار وأنت تراب؟!!». واتَسعت عيناها مصعوقة، وعضَت على شفتها السَفلى في خزي وضغطت زرَ off داخلها، وراحت تتحدَث وجارتها بالميترو الخفيف عن أحوال الطَقس المشرق في مرح.

يومها سألتها إحدى الطالبات، إذ كانت بصدد إلقاء محاضرة حول صورة الفتاة الفيتناميَة المحترقة الهاربة، عن مصير الطَفلة التي كانت تركض باكية خلف الفتاة، وتجرَ طفلاً معها. «لست أدري، ستركض ما شاءت لها النيران أن تركض؛ وستجرَه خلفها وهل يسعها غير ذلك؟ وستجرَه خلفها أميالاً وأميالاً، ولن تتعب مادامت يده الصَغيرة معها وسيحاول الإفلات من قبضتها في كلَ خطوة، ولن تفلت ذراعه الصَغيرة، وستركض محترقة ولن يسمع أحد صرختها، وستجفَف دموعها بيدها الأخرى وستركض، فالطَفل معها». «وأين سيحلاَن؟». «مكان ما محترق، حيثما ولَيا مكان محترق، محترق، مكان ما محترق. وستركض الفتاة ولن تفلت يد الطَفل منها، فيد الطَفل يدها ويدها يد الطَفل، وستمسح دموعها بما تبقَى لها من يد. وستركض في كلَ مرَة هي تركض. فالبعض يولد محترقاً أحياناً».

وكذلك كان دائماً يحوَل وجهتها. عمَ؟ عن أيَ أمر من الأمور. كان الأمر الأهمَ يتمثَل في تحويل وجهتها عمَا تبتغي وعمَا لا تبتغي. وكانت قصَتها سراباً لا يراه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير أهل السَراب. وكانت تلك العاطفة التي تجمعهما ناراً، فقد التقيا ذات مساء محترقين.. ولو تفحصتم الألسنة اللَهبيَة يوماً سترون المساحة التي افتكا من الكون ليجتمعا فيها. كانت قصَتهما تدور في ذلك البعد البعيد - القريب حدَ البرزخ. وكانت في النَار مساحة غير ملوَنة تتراقص وتداعب الهواء في قلق وتسأله في كلَ تئنَ لماذا لم تكن تملك لا لوناً ولا طعماً ولا رائحة.

كانت تعلم أن للقصَ حركة دائريَة. وكانت في كلَ مرَة تأخذ القصَة وتقلبها وتتسابق ضدَ حركة الزَمن لتتلمَس البدايات علَها تفهم، فتقتلعه منها نهائياً وتنعتق ممَا حلَ بها. تتذكَر أن الحاضر كان مختلفاً حينها. كان لها زمن آخر، كانت الآمال ممكنة على متنه. كانت خلاله امرأة ممتلئة فيَاضة. وكان الحلم ممكناً وقتها.

كانت قد اجتازت امتحان البكالوريا بتفوَق. الآخر كان مُتعِباً كالعادة. ولكنَ راية، صديقة الأزل، كانت معها هناك، رفيقتها في ملامسة الممكن وتحسَس ما يتجاوز جدران البيت والمعهد والحيَ والبرنامج المدرسيَ. تخرَجتا معاً في المعهد النَموذجيَ بتونس. وكان ارتياد الجامعة والالتحاق باتَحاد الطلبة الغد المنشود. كانت تتمنَى لو نشأت نشأة راية، تلك الفتاة التي تكرهها عائلة رهان بسبب خلفيَة والدها السَياسيَة، أستاذ الفلسفة النَقابيَ اليساريَ المتطرَف الذي يثير توجَس كلَ الجيران. كلَ احتكاك به قد ينتهي بك في مركز الأمن، وإلى استجواب لا نهاية له، وإلى التزام حياتيَ. ولوالديَ رهان كذلك، ذينك الطبيبين الراقيين انتماء سياسيَ، فقد كانا مواليين للنَظام السَائد. وكانا من جهتهما مصدر توجَس وخشية الجيران. فالويل لمن قد تساوره نفسه بالتَطاول على النَظام في حضورهما أو في غيبتهما. وكانت رهان وراية مصدر عراكات كثيرة في بيتيهما، كلَما اكتشف والد راية اختفاء أحد الكتب الخطيرة من مكتبته، وكلَما اكتشف أحد والدي رهان تلك الكتب في حقيبتها المدرسيَة. ومع ذلك كانتا قادرتين على اختراق المحظور، وعلى الإصرار على البقاء في البلاد وارتياد كليَة الآداب والعلوم الإنسانيَة لتسلَم المشعل الذي كانتا تتوقان إليه.

وحدث يوماً أن أخبرتها راية أن مجموعة من الشَبَان قد نجحوا في إعداد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهرجان للموسيقى البديلة في إحدى المدن السّاحليّة، وأنّ عدداً من الفرق الغنائيّة المفضّلة لديهما ستقيم حفلاً خلال تلك اللّيلة. تمكّنتا من جمع المال والذّرائع المبرّرة لاختفائهما وحضرتا الحفل الذي تجاوز فيه عدد رجال البوليس الحضور. وباعتبار أن البثّ كان ينقطع على وسائل النّقل في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل، قرّرتا أن تعثرا على مقهى تقضيان فيه الليل إلى أن تدبّ الحركة من جديد في محطة سيارات اللّواج(13). وعندما كانتا تحثّان الخطى في الطّريق الرّئيسيّة على قارعة الكورنيش، ترامى إلى مسمعيهما صوت قيثارة وغناء من الشّاطئ، فلمحتا مجموعة من الشّبّان المتحلّقين حول عدد من الشّموع المغروسة في الرّمال، واقترحت راية أن تلتحقا بهم:

- راية نحن لا نعرف أحداً في هذا المكان.

- لا تهتمّي بذلك سنفعل ما هم بصدد فعله، وعندما تشرق الشّمس سنعود إلى تونس.

ونزلتا إلى الشّاطئ وغاصت أرجلهما في كثبان الرّمل وتقدّمتا منهم. جمعت رهان طرفيّ وشاحها حول كتفيها وقد اكتسحت النّسمات المسائيّة أوصالها. وراحت راية تحرّك كتفها منسجمة مع نغمات القيثارات المتعدّدة التي كانت تنبعث من المجموعة:

- إنّهم يغنّون لـ «لاباس»!!

ووثبت نحو ضوء الشّموع وجلست بالقرب من المجموعة مبتهجة وراحت تغنّي مع المجموعة: «أمّا نايا بزقو عليّ الأماريكان..»(14). وانضمت إليها صديقتها في خفّة وراحتا تنشدان وتصفّقان وتشربان ممّا يشربون.

كان الجميع يغنّون في تجانس من دون انسجام، وقد يطيل أحد السّكارى من مقطع قد حلا له.. وقد يقتضب آخر مقطعاً لم يكن يحفظه، وقد يغيّر شخص من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلمة بدت له أقلَّ معنى من المطلوب.. وقد يشحن آخر المعنى في ضربات قيثارة عنيفة متشنِّجة.

حدَقت إلى الوجوه المختلفة، ولم تكن تعرف أحداً ممَن في المجلس، وكانت تتلقى ابتسامات عديدة من وجوه لا تعرفها، ولكنها لم تكن بالغريبة عليها.. نظرات متقدة وأصوات حادَة يكتسحها وجع عميق، وأغانٍ كانت دائماً تستمع إليها في غرفتها بعد أن تحكم إغلاق الباب خلفها. لم تكن تظنّ أن أحداً في هذه البلاد خلافاً لها ولراية يعرفها؛ فقد منعها السَيستام(15) بحجبه موقع يوتيوب.

وما إن انتهت الأغنية حتى سمعوا صوتاً يهتف من خلفهم مطالباً بأغنية «lamb» (16)!!«lamb»!! ولم يكن أصحاب القيثارات يرفضون الطَلب، وراحت تحدَق إلى الفتى المترنّح خلفها، الذي كان قد انضمَ إليهم، وظلَ واقفاً وأخذ يستمع إلى الأغنية في صمت، ولم تتغيَر تعابيره تحت وقع الحكاية، وكأنما كان مثبَتاً هناك منذ الأزل.. ولم يبدُ عليه أنّه قد لحظ تحديقها إليه. ثمّ وهو على حالة الإطراق ذاتها اتَخذ مكانه بالقرب منها وراح يرمي بجرعات جعته في فمه رامياً رأسه إلى الخلف من دون أن ينبس بكلمة. وحوَلت بصرها عنه إلى راية التي كانت تتجاذب أطراف حديث باسمة مع شاب إلى جانبها.

وتحوَلت الموسيقى إلى «الشمعة»(17)، وانتفض بعض من الشَمل متراقصين على أنغامها، وتقدَمت إحداهنّ نحو الفتى الذي حلَ متأخراً، وجذبت يده داعية إيَاه إلى الرَقص وراح يراقصها وراحت رهان تتلاعب بحبَات الرَمل بين يديها وتجول ببصرها على الرَاقصين. وراحت تتفادى الرّكن الذي احتلّه. وكانت راية ترقص مع الشاب الذي ما انفكّت عن محادثته حتى أثناء الرَقص. وبدأ الكون يضيق، وراحت تنتظر بزوغ الخيوط الأولى للفجر لتعود من حيث أتت، وراحت تتفادى نظراته المنصبَة عليها من خلف ظهر مراقصته، وراحت تجول ببصرها على الحشد باحثة عن راية، ولم تنجح في الوصول إليها.

وفجأة، تحوَلت لوحة الرَقص إلى مشهد منتفض. وكفَت الموسيقى، وحلَت

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

بدلاً منها أصوات صراخ ووقع أقدام ضخمة ترتطم بالأجساد، واكتسح طعم مالح فمها، وحجبت حبّات الرّمال عنها الرؤية، وراحت تحاول النهوض وسط الحشود الرّاكضة حولها، وغطّت وجهها لتحميه من الأقدام الواثبة.. شعرت بيد تحطّ على ذراعها لتسحبها في عنف. انتفضت من مكانها وحدّقت إلى الوجه الثابت وإلى الوجه الأسمر المثقد، وأرخت العنان لرجليها وراحت تركض معه في تعثّر لا تدري إلى أين يأخذها، وممّا هي هاربة، ولا ما كانت تولّيه ظهرها.

كان يركض في سرعة فائقة ولم يكن قد أفلت ذراعها، وراحت تلهث في تعب وقد أضاع الفزع تلك الغيمة التي كانت تلفّها وتخدّر أوصالها. وراحت تحاول التوقّف عن الرّكض فقد خانتها قواها، وحاولت أن تفلت ذراعها منه ولم يستجب لها، وراح يجرّ خطاها المتثاقلة وقال لاهثاً:

- نكاد نصل.. تماسكي قليلاً.

وانحدرا نحو جدار فيه ثقب خرجا منه نحو الشارع الرّئيسيّ الكبير الفارغ. كانت خيوط الفجر الأولى قد أخذت في البزوغ. وعبرا الشارع راكضين، وأخذا في الرّكض داخل أزقّة فرعيّة متعدّدة حتّى وصلا إلى محطّة الحافلات. اشترت تذكرة إلى العاصمة، وصعدا الحافلة الراكنة بالركاب تنتظر ساعة خروجها، وجلسا في مقعدين خلفيين منزويين. وضع حقيبة ظهره عند رجليه ثمّ أخذ يرتّب ملابسه وقال في صوت حلقيّ:

- كان عليّ أن أفرّ وحيداً، لقد كدت تتسبّبين في إلقاء القبض علينا!!

ولم تكن تفهم شيئاً، ومن هو؟ وأين هي؟ وما الذي حدث؟ وأين راية؟ يا إلهي راية!! وفتحت حقيبتها الجانبيّة وتناولت هاتفها واتّصلت بصديقتها، ولكنّ هاتفها كان مقفلاً. ثمّ تذكّرت كلامه، فحدجته بنظرة جانبيّة وقالت:

- لم أطلب منك أمراً من الأمور وشكراً لك مع ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فضحك ساخراً منها، وتناول سيجارة، وأشعلها؛ ثمّ قال في صوت منخفض وكأنّما هو يحادث نفسه:

- الكلاب!! إنّهم يترصّدون مناسبات مماثلة حتّى يجدوا مبرّرات للقبض علينا. أضحت البلاد سجناً كبيراً لا يتّسع لأحد غيرهم.

- ما الذي حدث؟

- ألم تري ما حدث؟!! لقد داهمت قوّات البوليس المكان، وانهالت علينا ضرباً من دون مبرّر. أعرف منذ الآن التّهم التي سيلقونها على من ألقي القبض عليهم، وستكون في شكل سكر وتشويش في الطّريق العامّ.

راعتها الفكرة!! أين راية؟!!

- هل ألقوا القبض على الكثيرين؟

- وكيف لي أن أعرف؟!! بالتّأكيد أنّهم ألقوا القبض على الكثيرين.

فقالت ساهمة:

- راية...

فسألها في قلق:

- صديقتك كانت هناك؟

- أجل. لست أدري ما الذي حلّ بها.

- عمّا قريب ستصلنا الأخبار عن الأشخاص الذين تمكّنوا من إلقاء القبض عليهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وراحت تفكّر، ماذا لو تمّ إلقاء القبض على راية؟

- لا يمكنني أن أرحل من دون راية!! لقد جئنا معاً ونحن لا نفترق تحت أيّة ظروف!!

فقال في قلّة صبر:

- ستعثرين عليها أنا واثق بذلك.

وهدر المحرّك معلناً عن شروعه في الانطلاق نحو العاصمة، فانتفض من مكانه، وحمل حقيبة ظهره وحيّاها قائلاً:

- رحلة طيّبة.

ونزل من الحافلة، وحدّقت إليه مطوّلاً. وسرعان ما اختفت خطواته السّريعة.. ولم يتسنّ لها أن تشكره.

ما الذي حدث؟!! وبأيّ ذنب ضُربوا؟!! وهل اعتُقلوا؟!! وما هي التّهم الموجّهة إليهم؟ وأين هم الآن؟ وراية؟ وهذه الحافلة التي تمضي في حال سبيلها، وكأنّ أمراً لم يكن؟

توقّفت الحافلة وكانت المحطّة التالية الجامعة واتّحاد الطلبة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، وعرفت هناك أن الحياة تطول أو تقصر تلك أمور نسبيّة، وأنّ المهمّ هو الفعل وما يتركه الإنسان من أثر(18). وعرفت أن من التقتهم لم يكونوا غير حاملي مشعل مهمّة مستحيلة، أقصى ما يحلمون به هو ألاّ يموت الحلم، وأن يظلّ على قيد الحياة ماداموا هم كذلك، على أمل أن يتلقى آخرُ الطّرف، المشعَ قبل موتهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعادت راية، وكانت أكبر من أن تكون رفيقة لها، كانت حباً وحياة وخزاناً للغضب، وحدثتها عمّا تعلّمته وعمّا رأته أثناء فترة غيابها: «رهان، لسنا بمفردنا، معنا العديد العديد من الأشخاص الآخرين!! رهان لدينا رفاق في شتى أنحاء العالم، وكلّنا أمل أحدنا في الآخر. وكلّما رفعت الشعار أجابك كلّ واحد منهم بلغته وحيّوكِ على طريقة قومهم في التحيّة، فلا تؤاخذيهم. رهان لا خوف بعد اليوم، لقد ولّى زمن الخوف والشكوك والتأمّل. ولا تحسّر بعد اليوم على الزّمن الذي ولدنا خلاله. فالفكر لا يموت، وثمة مهمّة تاريخيّة تنتظرنا، ولن يذكرنا التّاريخ ولكنّنا سنكتبه، ولسنا في حاجة لأن يذكرنا مادمنا نحمله، وكيف سيسعه ذلك فنحن التّاريخ، وحسبنا أنّنا نحمل أحلام رفاق لا نعرفهم، وحسبنا أنّه مازال يسعنا أن نحلم. وحسبنا أنّهم لن يتمكّنوا يوماً من قتل الأحلام فينا، ولا من القضاء على حسّ المقاومة الذي يشحذنا».

وراحتا ترقصان على وقع خطى الفاضل وأماني فلاح ووصايا نبيل(19). فقد كانوا طلبة ولم يكونوا على حياد.

وكانت طالبة أدب، وكان غارسيا لوركا(20) عند السّيّاب وكان السّيّد دارسي(21) وهاذكليف(22) وتيبالد(23) وجون باتيست غرونوي(24)، وكان لقُبَل ليونار كوهين الألف(25) الأثر الذي لا يختفي. ولم تكف عن الحلم به يوماً وإن لم تتق إلى كتابته وكانت في انتظاره وإن لم تكن. وما كانت واثقة بوجوده ولم يكن أحد من الذين عرفتهم فيما بعد يعلم بوجوده. وما إن بدأت تبحث عنه حتى كفّت، فقد بدا وكأنّ كلّ عناصر الكون قبل الخلق قد اجتمعت اجتماعاً سريّاً واتّفقت على أن تقنعها أنّه لم يكن موجوداً. واتّفقت سرّاً مع نفسها ألاّ تبحث عنه، وأن تجعل الكون يكفّ عن محاولات إقناعها بأنّه لم يوجد، فقد كان أمرٌ ما يخبرها خفية أن الكلّ قد قرّروا نسيانه، وكأنّه لم يكن، وهو ذاك الإيقاع الخفيّ الذي يشدّ ظهورهم وهم لا يعلمون. وكانت تلك هي الخسارة الأولى.. ومرّ العمر كدخان لفيفة محترقة.. ولم يأتِ يوماً.. ولم يرحل..

في المقابل، اتّسع المكان إلى قطيعة مع العائلة، إلى كتب وكتب.. إلى اجتماعات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سريّة.. إلى انتفاضة الرّديّف(26) ومحرقة غزّة(27)، وإلى شعارات من قبيل «مطالبنا ما تتجزّا من الرّديّف حتّى غزّة».. إلى مساندة إضرابات جوع المفروزين أمنيّاً.. إلى خطّ هاتف مراقب.. إلى بوليس سريّ بالمرصاد وإلى مطاردات أمنيّة لا نهاية لها...

لم تكن الثورة مطروحة البتّة، خاصّة بعد فشل انتفاضة الرّديّف. انتفاضة الرّديّف كانت البصيص الأخير من الأمل باندلاع ثورة يشهدها التاريخ الذي تسافران على متنه. كانتا تعلمان منذ البداية أن ما من ثورة إنسانيّة قد اندلعت عبر التاريخ إلاّ وقد ارتبطت بمسيرة فكريّة وسياسيّة صبورة وطويلة حتّى تنسى أسماء الأبطال. كانتا تعلمان أن البنى الفكريّة لا يسعها أن تتغيّر ما لم يمتدّ نضال الفئات الاجتماعيّة على اختلافها على مدى أجيال. أمّا انتفاضة الرّديّف فقد كانت جنيناً مفاجئاً انغرس في بطن عاقر. عاد من خلاله الأمل فاندلعت التّحرّكات في المناطق الدّاخليّة مساندة له وشاحذة إيّاه حتّى تلتقط كفّ التّنين المحترق وتمكّنه من مواصلة ركضه الملتهب إلى العاصمة، موقدة مشاعلها من ألسنته اللّهبيّة. وفي العاصمة كانت التّحرّكات في أوجها؛ وكلّ النّاشطين السّياسيّين والنّقابيّين، باختلاف توجّهاتهم، يشحذون مشاعلهم في انتظار الأمل المحترق لينضمّوا إلى المعركة النّهائيّة.

Telegram:@mbooks90

ولكنّ النّظام كان قد تمكّن من إدراك التّنين، وارتمى على ظهره مباغتاً مخمداً نيرانه. وكذلك ألقي القبض على أصحاب المشاعل الصمّاء، وانقبض الزّمام على رقابهم. وكانت الخيبة. وعاد كلّ إلى شاغله الأصلي، محاولة الحلم بثورة قد تظفر بها الأجيال القادمة.

لم يكن في ذلك من بأس.. لا بأس على الثّورة التي لم يكن والداها قد ولدا بعد.. لم يكن من بأس في ذلك؛ فقد كان على الأمر أن يحظى بكلّ ما يحتاج إليه، كلّ الوقت الذي يحتاج إليه، كلّ القرابين اللاّزمة. وفجأة استيقظنا ذات صباح على خبر غريب.. لقد عاد إلى منطقة الحوض المنجمي تنّينها القديم. قالوا إنّهم كانوا يعتقدون أن النّظام قد أحرقه. ولكنّه اليوم ينتفض من رماده غضباً لما حلّ بالبائع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتجوّل. وكذلك جاء خبر مراودة طاعون الرّقص(28) المنطقة.... حتّى تفشّى في البلاد جميعها شيء ممّا فقدته مذ هلاك الكاهنة(29).

وكذلك كانت ثورة حتّى اقترنت بـ«الياسمين» وبـ«الربيع».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة الثالثة

الندبة في دم راية تعود إلى زمن القصبة، ويمتدّ أثرها إلى كل الأجيال التي ستحمل كروموزوماتها. حبّها الأوّل عرفته هناك خلال إضراب جوع. بعد الخذلان لم تكن لتتوقّف عن الارتجاف أيّاماً ثلاثة. انتهى الاعتصام ومات الحبّ الذي ولد أثناءه سريعاً سريعاً كخبر أنشودة المطر.

اصطدمت ذات حزن بواقع خرافيّ الوجع، قرّرت ذات اعتصام أن تشيّد في عينيه الوطن الذي تحمله بين أغانيها الثوريّة. قال إنها الإله. وأعلن الولاء لها.. وكان ما جمعهما ثوريّاً خرافيّاً عظيماً. وانقضت اللّيالي الطّويلة وهي تحادثه وتهمس في برد ماضيه وجمود فكره الأحاديّ، فكانت شجرة ديكارت(30)، وأينعت شمسه العلميّة نجعيّة وفلسفة وتعلّقت حياته بأهداب أنفاسها. يساريّ كان مفعماً بالعزّة الشّرقيّة. وكان الانتظار.. وبرد الانتظار.. ينساب كقصيدة درويشيّة ليدفئ رئتيها الباردتين نصف دفء، كإيقاع وجوديّ يبعث الحياة في الجثث المدفونة بين تونس وإيطاليا، ويسافر بالمفاتيح الفلسطينيّة في قوّة سحريّة، ويفتح الدّيار من الأصقاع، وينفض الغبار عنها، ويرتّب قوام أطفال الصّومال، ويلوّن أراضي السّودان اخضراراً. وكانت الجرعة الزّائدة..

واضطرب الإيقاع وكان لبدايات أفريل الخيانة.. خذل نفسه والكلمات، تماماً كما كان يحدث كثيراً أثناء تلك الأيّام. وبين الهرولة والأخرى وبين المهمّة والأخرى، سقطت عنه تلك العصا السّحريّة وتفتّتت فتبخّرت، وكان نشيد عرائس البحر الخرافيّ قد أوقع به في بحر الظّلمات. ولليساريّ خيانات تفوق تعدّد الزّوجات، وتتسطّح الإيديولوجيّات.. ويدنّس الجسد وتباعاً الذّاكرة.. والإنسان. دثّرت غمامة خفيفة زرقاء راية؛ وتحوّلت الخيانة إلى وجع ميكروفيزيائيّ يستوعبها وينقضّ على أدقّ تفاصيلها اليوميّة.

تغيّرت راية كثيراً بعد تلك الحادثة. اختفت منها الفتاة المرحة الثوريّة الحالمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتظرت رهان في صبر أن تختفي النّدبة من دم صديقتها التي أنكرت الوجع. كانت دائماً تقول إن الأمر قد استغرق منها أيّاماً ثلاثة فقط حتى تمكّنت منه. قالت إنها نسيت. وإنّه يكفيها أن «عقاب الرَذيلة هو الرذيلة ذاتها». وأنّه «يستحيل إرغام ما يشابه الذّوات على أن يصيروا ذواتاً». كان ذاك هو تعليقها فقط. في المقابل أصبحت كثيرة الانزواء. قليلة الكلام. وكثرت الثقوب الجديدة في الحزام الجلديّ الذي تشدّ به سروالها.

كانا في غرفتهما المشتركة في المبيت الجامعيّ عندما فتحت رهان النّافذة صباحاً، وقالت في حماس ممسرح:

أشعّة الشّمس الغبيّة قد عادت اليوم أيضاً. لا شيء يتغيّر راية، ها هي تعود كلّ يوم. لنرحل من هذا المكان فقد نصل إلى بلاد لا تشرق الشّمس فيها كلّ صباح.

فنفضت صديقتها عنها الغطاء وقالت في كسل:

- وأين تريدين أن نذهب؟ الدّرس سيبدأ بعد قليل.

- وماذا لو نتغيّب؟ لا يمكننا أن نواصل الحضور يوميّاً والحياة تعجّ بالإمكانات والكون واسع الرّقعة كما تعلمين. صحيح أنّه لا يسعنا السّفر وأنّ مالنا قليل ولكن..

خرجت الأخرى من الفراش وفتحت حاسوبها ووضعت أغنية «la bohème» (31). وقالت فاتحة ذراعيها منساقة مع صديقتها لتنال رضاها وترتاح من محاولاتها البارزة في إلهائها:

«On était jeunes, on était fou » (32)

وغيّرتا ملابسهما على عجل، وجمعتا حقيبتي ظهريهما، وغادرتا المبيت الجامعيّ الذي كانتا تقطنان فيه، وانتقلتا إلى محطّة القطار في «برشلونة»(33)، وحدّقتا إلى اللوحة الإلكترونيّة المعلّقة المشيرة إلى اتّجاهات مختلفة يمكن أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتخذها المسافر، وتساءلت راية في مرح مصطنع:

- ترى أين سنحلّ هذه المرّة؟

- ما رأيك بسوسة؟ مضى زمن لم نتصل خلاله بخليل الذي تعرّفنا إليه أثناء اعتصام القصبة.

- اتّفقنا إذن. فليقلّنا قطار سوسة، ولنشرب قهوة رفقة خليل!!

واتّجهتا نحو شبّاك التّذاكر، وابتاعتا تذكرتين نحو «بئر بورقيبة»، ودخلتا رصيف المحطّة. كان القطار يشارف على المغادرة، فأقلّهما واختارتا الكرسيّين المتواجهين المتوفّرين الأقلّ نحيباً، ثمّ جلستا على الجلد البنيّ المهترىء. كانت رهان تجلس بشكل معاكس لسير القطار عندما أشارت في خفّة إلى جدران محطة «حمّام الأنف» من النّافذة:

- هل لاحظت أنّهم قد قاموا بطلاء كلّ الجدران التي احتوت على الشّعارات والرّسومات المناهضة للنّظام السّابق؟

- أمر غريب. تماماً كما جرى مع جدران القصبة. كنت أعتقد أن كلّ ما دوّناه على جدران القصبة سيظلّ خالداً، وأنّهم لن يدّخروا جهداً حتّى يحافظوا على ما كتبناه أثناء مرورنا بذلك المكان.

- حدّثني صديق لي يدرس في معهد الفنون الجميلة أن مجموعة من الفنّانين التّشكيليّين في أوروبا قد أصبحوا يكتفون في أعمالهم بدعوة مجموعة من الأشخاص على مأدبة، ثم يقومون بتغطية ما تبقّى من مأكولات وبتشميع الآثار الإنسانيّة المحفورة في خطّ الزّمن من خلالها.

- لا أعتقد أن مقارنتك تستقيم. ففي البداية يخلو ما حدّثك صديقك به عن مفهوم الفنّ باعتباره فعل خلق، ونقلاً للواقع من منظور مخصوص مُرفق بذاتيّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معينة. ثمّ إن آثار الثورة على الجدران، وإن كانت هي كذلك، تجلّياً من تجليات تأطير الفعل الإنسانيّ مكاناً وزماناً، تبقى في منزلة تاريخيّة أكثر عنفاً ممّا ذكرت، باعتبار أنها، صبراً وأملاً ومطلباً، قد ارتسمت بألوان بخّاخات القرن الحادي والعشرين.

- أجل، ولا تنسي فعل المقاومة والرّفض وافتكاك الفضاء الحيويّ الذي يرافق هذه الأعمال من جولات سابقة موجّهة نحو اكتشاف المكان، واجتماعات سريّة تهدف إلى الاتّفاق حول الشّعارات التي سيجري تناولها، وتحضيرات للمواد، وعمليّات نقش ونحت للمراسيم، ثمّ ما يصحبها من طقوس في التّخفّي ومن مطاردات ليليّة.

- أعتقد أن موجة الغرافيتي من أرقى الوجوه الفنيّة التي أفرزتها الثّورة التّونسيّة.

- أعتقد أن الفضل فيها يعود إلى نظام «بن علي».

فضحكت راية وقالت:

- إذن فأنا أخشى على الغرافيتي من ترف هذه الفترة.

وجارتها رهان في الضّحك قائلة:

- هوّني عليك راية، فقد قاموا بطلاء الجدران.

وأطرقتا تستمعان إلى صوت عجلات القطار، وهي تمرّ مستفزّة السّكّة الحديد، تلك العجوز الخبيرة، وفجأة امتعض وجه راية:

- نشارف على الوصول إلى محطّة «بئر بورقيبة»، والمراقب في العربة المحاذية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تقصدين؟ لا تزال المحطة بعيدة، سيصل المراقب وسيرى تذاكرنا مناسبة لا تقلقي.

فضحكت راية في توتر، وأشارت إلى النافذة المطلّة على المحطّة، حيث أخذ القطار يتراخى ليلفظ ركّاباً ويستقبل آخرين في ضجر واضح. ودخل المراقب العربة وراح القطار يتباطأ، ووصل إلى الفتاتين وطلب تذكرتَيهما، فقدمتهما إليه رهان مبتسمة في براءة وعفويَة، فقال من دون أن تتغيّر تعابير قسماته المنحوتة في صرامة أمام تعابير وجهها اللّطيفة:

- أعتقد أنكما قد وصلتما المحطّة التي تقصدانها.

فابتسمت راية في دفء وقالت في رقّة:

- أخشى أن طارئاً قد داهمنا وغيّر وجهتنا.

فأجابها مقلّداً لهجتها في سخرية:

- وأنا أخشى أن الأمر لا يهمّني.

ثمّ أشار إلى باب القاطرة، إذ توقّف القطار وراح الرّكاب يتزاحمون بغية الصّعود والعثور على كراسيَ شاغرة قبل أن تُشغَل.

نهضت الفتاتان من مكانيهما في تخاذل أمام عين المراقب، ووقع بصر رهان على خنفساء بنيّة من خنافس أرائك القطارات، وهي تتسلّل من ثقب في ظهر الكرسيّ الشّاغر، وتتّجه صوب طاولة الأكل المعلّقة عليه، فهمزت صديقتها بمرفقها، وضحكتا ملء شدقيهما.

نزلتا من القطار، ووجدتا أنفسهما في المحطّة، كانت سماء «ماي» تكاد تخلو

من السّحب لتترك لأشعّة الشّمس الحارقة المجال واسعاً لتتفاوض مع بقايا رياح شتويّة، كثيراً ما تؤول إلى تحقيق مطالبها. جلستا على الكرسيّ الحجريّ في حذر من الحرارة التي قد تنبثق عنه، متأفّفتين. لم يغادر القطار المحطّة بعد عندما انبثق عنه صراخ محتجّ:

- لا يحقّ لك طردي!! أنا طالب ولا أملك المال الكافي لألتحق بكليّتي لأجتاز الامتحانات!!

- هيّا انزل قبل أن أتّصل بالأمن!

- على الطّلبة أن يتنقّلوا مجّاناً!!

- لا دخل لي بكلّ هذه التّرّهات! الأمر لا يعنيني!!

- على الأمر أن يعنيك!! عليه حتماً أن يعنيك!! من سيعني إذن؟!! أنت كذلك معنيّ بالأمر!!

وظهر عند الباب المراقب وهو يمسك بالفتى من تلابيب ثيابه ليضطرّه إلى النّزول، وتعالى صراخ الفتى، وهو يدفعه:

- لا أسمح لك بأن تعاملني بهذا الشّكل!! خلّ عنّي يدك وإلاّ ما حمدت العاقبة!!

فاستشاط المراقب غضباً، ونزع يده عن الفتى، ثمّ قال في غيظ:

- علاه هكّة يا مواطن؟! خنخدمو على رواحنا(34)!!

فرتّب الفتى قميصه وحمل حقيبة قيثارته وولّاه ظهره، قائلاً:

- لا مكان للمواطنة بيننا. جميعنا رعيّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونزل إلى الرصيف، وأخذ القطار العتيق يسعل سعالاً خانقاً لاهثاً حتى مرّت الثوبة المعتادة، فراح من جديد يتململ مترنماً.

كان لا يزال ينفض ثيابه ويرتّب قميصه على كتفيه عندما رأت رهان جانب وجهه الأسمر، الخاضع لسيطرة عظم فكّه السّفليّ المربّع المشدود في حدّة. وتوقّف سيل دمائها على حين غرّة كما لو كان يحاول أن يتفادى حادث سير قاتلاً، وارتدّ اتّجاه دورتها الدّمويّة من حينه..

حوّل بصره عن ذاته، والتقاهما، فارتسمت ابتسامته الجانبيّة واختفت الحدّة من على وجهه، وسوّى من وضع ذراع حقيبة ظهره، ثمّ اتّجه نحوها، وجلس إلى جانبها قائلاً:

- ها أنت!!

مرحبا.

ومدّ ذراعه مصافحاً راية، مقدّماً نفسه:

- أوان.

فابتسمت وصافحته قائلة:

- راية، وهذه صديقتي رهان.

فوضع حقيبته عند رجليه، وأسند يديه إلى طرف الكرسيّ الحجريّ، وأرخى ظهره مستمتعاً بأشعّة الشّمس، وقال:

- لقد رأيت المراقب وهو يطردكما من القطار. أين كانت وجهتكما؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سوسة. وأنت؟

- أنا كذلك متجه نحو سوسة، وأخشى أن ساعات طويلة تفصلنا عن القطار القادم.

- ماذا سنفعل إذن؟

تنافخ ضجراً وقال:

- لست أدري.

فسألت راية صديقتها:

- ألا تعرفين أين تقع محطة سيارات الأجرة؟

لن ترسل أمي المال إلينا إلّا عندما تغادر عيادتها.

سأحاول أن أحث والدتي على إرسال المال حالاً، ثم سنبحث عن محطة سيارات الأجرة.

وقف أوان من مكانه، وكأنما عثر على الإجابة في حمام الشمس الذي ابتغاه، وقال:

أنا لا يسعني الانتظار، عليّ أن أكون في «سوسة»، قبل ساعة ونصف من الآن. وداعاً.

وولّاهما ظهره حاثاً خطاه، مغادراً المحطة. فحدقت راية إلى رهان الغائبة عن الوعي برهة، ثم وقفت من مكانها وجذبت صديقتها، وأسرعت خلف الفتى، منادية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيّاه، مستوقفة:

- فلتأخذنا معك!!

فتوقّف، وحدّق إليهما ثمّ أجاب:

- لا أريد.

فقالت ضاحكة:

- ليس أمامك خيار، إمّا أن تأخذنا معك أو نقتفي أثرك وتأخذنا معك.

- قدّمي إليّ سبباً وجيهاً واحداً يجعلني أتكبّد مشقّة مرافقة فتاتين مجهولتين تائهتين ومفلستين.

- مفلستين.

فحدّق إليهما لحظة مفكّراً، ثمّ تنافخ ممتعضاً، وقال:

- أعلم أنّني سأندم على ذلك.

وواصل طريقه، وجرّهما ظلّه خلفه، حتّى وصلا إلى قارعة الطّريق، حيث كفّ عن السّير، وراح يلوّح بيده إلى السّيّارات المارّة مستوقفاً إيّاها لعلّ إحداها تتوقّف لأخذهم، وما كانت إحدى السّيّارات لتتوقّف، فقال ساخطاً:

- يبدو أن ثلاثة رقم مرتفع نسبيّاً.

فأجابته رايّة، مربّتة على كتف صديقتها في فخر:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- من حسن حظّنا أنّني أملك دائماً حلّا سحريّاً لمثل هذه المواقف. رهان هلاّ مزجت أوراق اللّعب وتخيّرت لنا الورقة المناسبة؟

فتحوّلت تعابير الفتاة المستاءة بفعل موجة الحرّ، إلى وجه طفوليّ ملائكيّ خائف على وشك البكاء يستهدف أحاسيس الشفقة وغريزة الحماية، فضحكت راية وتنحّت إلى جانب الطّريق جاذبة معها أوان وقالت:

- أنت ولعبة الورق ستتمكّنان من احتلال العالم يوماً!!

وتولّت رهان ووجه الطّفل منكسر فيها، زمام الأمر. وسرعان ما راحت سيّارة «إيسوزو» قديمة تخفّف من سرعتها، وتوقّفت عند جانب الطّريق، وأطلّ كهل من النّافذة، وقال:

- إلى أين الوجهة شباب؟

فتقدّم أوان، وقال:

- السّلام معلّم!! طالعين لـ «سوسة».

- اركبوا. هاكم على ثنيتي(35)!

وركبوا سيّارة الرجل، وكان الانتفاض للأجساد المهزوزة وللآذان المنكمشة وللعيون المستنكرة، فوضى حواس عارمة كانت تعمّ مركبة العمّ «مولدي» الذي استقبلهم في سيارة مهترئة من نوع «الإيسوزو». كلّ روائح الخضر فيها كانت تناجي البصل، وكان جلد الكراسي يتصبّب عرقاً تحت الشمس الحارقة، وينضح من حقول تبغ قديم غرست فيه. وكانت الكراسي تغرق ضيوفها محدّثة إيّاهم عن مغص الزّنبرك فيها.

قائمة أغاني العمّ «المولدي»، وإن كانت منتظرة ومتوقّعة، فقد كانت غير

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محتملة قط، إذ يبدو أن الاهتزاز في سيارة منتفضة تنفخ بنزيناً وتبغاً قديماً مهترئاً وبصلاً، والاستماع إلى أغنية «تيتانيك» ثمّ «فابيني»(36) أثناء شمس حارقة وطريق ممتدّة وندية مخادعة، أمر يجاري موت «محمّد شكري»، الأوّل لا الثاني.

كان كلّ ما في السّيارة يبعث على الدّوار، وعلى الغثيان تباعاً لذلك. فكلّ مكوّنات هذا الفضاء المتنقّل، كانت نتاجاً لمحرّك خفيّ واحد، يقوم على قانون التّكرار المتبلّد والمتلبّد في رتابة دوريّة لا تتجاوز وحدة قياسها الزّمانيّة، عدداً حصريّاً من الثّواني. ابتداء من شخير المحرّك إلى تلك «التّك» المنمّة عن عطب في المسجّل، فذاك الكلب الدّمية الموضوع على لوحة القيادة والذي كان يحرّك رأسه في طاعة وإيجاب تحت وقع انتفاض هيكل السّيارة. وحدها الوردة البلاستيكيّة الزّهريّة الكبيرة التي كانت مثبّتة هناك، وقطر النّدى القبيح اللاّصق عليها في كميّة غراء بيّنة، ما كانت تتحرّك، ولا تتململ، ولا تتردّد، تلك الوردة الزّهريّة، كانت مثبّتة في خطّ الزّمن مبهوتة مشدوهة، وتجمّدت كذلك منذ صدور أغنية «تيتانيك» انتشاء.

تنويم مغناطيسيّ، كان ينمّ عن الكفّ البلاستيكيّة المعلّقة في عنق مرآة الرّؤية الخلفيّة، وعبارة «خمسة وخميس» كانت تنبثق عن الكفّ في جلال سحريّ في كلّ حركة جانبيّة تصدر عن الكفّ الملوّحة تحت وقع أنغام «تيتانيك».

حاولت رهان في مثابرة أن تحوّل بصرها عن الكفّ الملوّحة، التي أخذت حركاتها الجانبيّة تتحوّل إلى دوائر صغيرة، والتفتت إلى راية التي كانت مشدوهة بدورها وهي تتفحّص لوحة القيادة:

- الوردة أم اليد؟

- الكلب غلّب عليّ(37).

- وأنا يكاد يغمى عليّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا تقلقي، لا تفصلنا سوى مسافة قصيرة عن «سوسة».

وحوّلت بصرها إلى أوان، كان يتشبّث بالمقود الذي يعلو النّافذة بجانبه، وكأنّما ليحافظ على توازنه في مقعده الأماميّ الهزّاز، وكان ظهره مثبّتاً على الكرسيّ، فارعاً قامته، رافعاً رأسه، يتحدّث إلى الرّجل في لهجة صارمة وجديّة وخشونة مفتعلة، ولكنّة حلقيّة تلتبس بكلّ ما يتلفّظ به فتشدّ قامة كلماته، وتلبسها ما يناسب الكهولة، وتتحوّل الكلمات في فمه إلى رجل وقور رصين يتحدّث عن تجربة عميقة وهو يتلاعب بشعر لحيته، عندما يسهم بصره الذي كثيراً ما يغرق في ماض مشحون بالألغاز، ووصلتها كلماته في تصدّع:

- إذن كذلك تقضي يومك متنقّلاً بين «نابل» و«سوسة» موزّعاً الخضر؟

فأجابه الرّجل من دون أن يحوّل بصره عن البلّور الأماميّ للسّيارة:

- واللّه وليدي تنجّم تقول(38).

- والسّيارة، أهي ملك لك؟

فدوّى ضحكه حزناً، ثمّ أردف وبقايا ضحكات لم تغادر صوته بعد:

- أعمل منذ ثلاثين سنة كسائق عند شركة توزيع الخضر. لم أتمكّن من توفير المال اللاّزم لاقتناء سيّارة والعمل لحسابي الخاصّ. فوالداي كفيفان وأختي كذلك. جميعهم في عهدتي منذ أن كنت شاباً. والآن يعيشون معي بطبيعة الحال رفقة زوجتي وأبنائي الثلاثة. وبعد الثورة، «الدّنيا زادت كان بركت. كلّ شيء غلا. البنزين، الخضرة، الخبز، الفاتورات، حاشاك ولدي كان بني آدم زاد رخص»(39).

- «لا باس بابا لا باس. البلدان إلّي عملت ثورات الكلّ تغصرت شويّة وبعد الأمور تحلّت»(40).

- «كان أحنا نتغصرو وليدي. ما تجي كان في ريوسنا»(41).

- نعرف إلّي ديما تجي كان في راس الزّوالي، أمّا الزّوالي هو إلّي يكتب التّاريخ ما غير ما يتسمّى. والزّوالي هو إلّي ما يخافش مالموت خاطر ما عندو ما يخسر. أمّا الثّورة، عطاتهم كف وولّاو يقراولو ألف حساب»(42).

- «إن شاء اللّه ربّي يعطيكم انتوما الوقت الطّيّب أحنا إلّي لينا وصللنا»(43).

وهمست راية لصديقتها ساخرة:

- انظري إلى هالة الخيلاء التي يلفّ بها نفسه.

فابتسمت في امتعاض، وغيّرت رأيها وبصرها. كانت تعتقد أنها تستطيع التّحديق إليه كما شاءت مادام لم يلمحها، ولم تكن تتمكّن حتّى من هذا التحديق. كانت غير قادرة بالمرّة حتّى على التقاط أنفاسها بعفويّة، وكان هذا الحضور الطّاغي خانقاً وراحت تتوق إلى الوصول ومغادرته على الفور.

لم يكن قد تغيّر البتّة منذ أوّل لقاء جمعها به. كان تماماً كما في انتظاراتها الفائتة المطوّلة. لم يكن طيفه السّاكن في مدى الانتظار أكثر تألّقاً منه كما كانت تعتقد. وكان هذا الحضور محزناً محزناً. ولم تكن تعرف لماذا كان يجعلها تفكّر بالفناء. ولماذا يجعلها تراجع مساحة الأرض فتبدو ضيّقة ضيقاً لا يتّسع لغيره. وكانت السّيّارة تضيق بها، وكان كلّ ما فيها قد راح ينقضّ على صدرها فيعتصره. وارتخت على مقعدها مغمضة عينيها، محاولة ترتيب أنفاسها وإخماد النّيران فيها، وشعرت بـالحرارة المتسائلة تنبعث من راية، فأجابت من دون أن تفتح بصرها:

- إنّه الفتى الذي حدّثتك عنه مطوّلاً.. ذاك الذي أوصلني حتّى الحافلة عندما داهمنا البوليس على الشّاطئ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تسمع تعليقاً من صديقتها برهة من الزَمن، ثمّ سمعتها وهي تسألها:

- أتعتقدين أنه قد تعرّف إليك؟

- لا أعتقد ذلك.

- أتودّين أن ندعوه إلى قهوة عندما نصل؟

- على العكس تماماً، كلّ ما أريده هو الابتعاد عنه.

- لماذا؟ ألأنّه لم يتعرّف إليك؟

- كلاّ.

كلّ ما كان في الأمر هو هذا الشعور بالتلاشي شيئاً فشيئاً عندما يكون في الأثناء. ولم تحدّث صديقتها عن هذا التلاشي، ولا عن الضّباب السّميك الذي أخذ يلفّها ويفصلها عن كلّ ما يحيط بها. أحلام يقظة وتخدير وأشباح.. وكانت تهوي..

ووصلها صوته، وكأنّه يصدر من قاع بئر عميقة، وهو يجيب الرّجل عن سؤال ما:

- لديّ عرض موسيقيّ في «سوسة»؛ لذلك لم أتمكّن من انتظار القطار التالي.

- حقًّا!! أسمِعنا صوتك إذن!!

فضحك وقال:

- في الواقع، لا يسعني الغناء، بل العزف على آلة موسيقيّة تسمّى القيثارة بيس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قيثارة بيس؟؟

- أجل. القيثارة بيس هي الخيط الرّفيع الذي يجمع بين كلّ مكوّنات الآلات الموسيقيّة؛ فيجعلها منسجمة ويوحّد روحها. باختصار القيثارة بيس هي الشّكل الذي يتّخذه الإيقاع في الأغنية من دون أن يبرز للعيان. هي الوتد الذي يشدّ قوام الفرقة.

- «معناها وليدي الخدمة الكل تتعدّى على كتافك منغير متظهر في التّصوير.. ياواللّه حوال! كارك تغنّي خيرلك! تي هوّة بنادم خلقي ماشي في السّقين زيد عليه يتخبّى في غنّاية! مازلت صغيرا! علاش عامل في روحك هكّة»؟؟!(44)

وَصله ضحك الفتاتين من الكرسيّ الخلفيّ فحدجهما بنظرة نكراء من مرآة الرّؤية الخلفيّة. ثمّ سلّم الرّجل دعوة قائلاً:

- لا يسعك التّهرّب. العرض ينتهي عند السّاعة الثّامنة ليلاً، أيّ لديك متّسع من الوقت لتعود إلى «نابل» حينها.

فضحك الرّجل مؤكّداً أنّه لا يسعه عدم الحضور، بينما مدّت راية يدها من المساحة الضّيّقة الفاصلة بين الكرسيّين الأماميين، وقالت:

- ونحن أين دعوتنا؟

- لا أعتقد أن سبق لي وقمت بدعوتكما.

- ومع ذلك عليك أن تدعونا في الحال مادمنا لم نقرّر بعد ماذا سنصنع حال وصولنا.

سلّمها دعوة صالحة لشخصين ممتعضاً، وتفاقمت حالة الاهتزاز عندما انخرط العمّ «مولدي» في طرقات «سوسة» المزدحمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

كانت تجلس إلى جانب راية، وقد بعثت فيها نسمات «سوسة» بعض الانتعاش. لم تتمكّن من التهرّب من الحضور، وأقنعتها صديقتها أنها في حاجة إلى تغيير الجو والأفكار، وأن عليهما اكتشاف أحوال الموسيقى البديلة بعد الثورة، وأنها لن تجد نفسها مضطرّة إلى التعامل معه. إذ ما إن ينتهي العرض حتى تغادراه إلى الأبد.

وكان العرض..

كان يقف في ركن من الخلف، وراء المغنّي. ولم يكن غيره على الخشبة. كان شاهقاً. وحده والحضور الطّاغي النّافذ سرّاً. اخترقها. كان أمراً عجائبيّاً. مدمّراً. وكان الكون ضيّقاً لا يكاد يتّسع له.. وكانت ألوان كثيرة وأشباح كثيفة تطوف به في شكل هالة تصنعها النّغمات السّرّيّة المنبثقة عن قيثارته.. وكان نبضها يستحيل إلى دقّة مريضة واحدة تهفو في جنون. كان من الكثير على وعيها أن يكون. ومن الكثير على سمعها أن يوقّع في همس فتتراقص الأغاني على وقع شحناته المحتدمة. كان ينتفض لينقضّ في يأس على أمور وشخوص لم تكن لتراها.. وكان الشّرر المتناثر من عينيه الضّجرتين يكاد يهلك المتفرّجين، وكانت عيناه تضيقان في وعيد وأزير وهو يهوي على خصمه بثيابه الرّثّة ويده العزلاء.. وكان ماهراً في تفادي سيف خصمه وكاد يقضي عليها في كلّ مراوغة وفي كلّ إصابة تكاد تسمه. كانت قيثارته تتهاوى على الأرضيّة من دون تاريخ.. ومن دون ملامح سوى صرخة عالية مدويّة مرفقة بكفّيه المفتوحتين عند مصرع صرختها المجرّحة، وسوى شريان بارز يعلو وجهه الممزّق.. صرخة قيثارته المجرّحة ووقوعه الحتميّ.. والكلّ كان هناك ولا يراه..

كان ما حدث عرضاً موسيقيّاً مسلّياً لقسمٍ من الحضور، وسلسلة من التّقنيات الفنيّة لقسمٍ ثانٍ، ودليلاً على مواكبة الثّقافة لقسمٍ ثالث. قصّة وجع أحدهم كانت هناك مستبطنة متذكّرة طافية على السّطح في شكل مفجّر. بعض من الحاضرين تسلّوا بكلّ هذا الوجع وبعضهم راح ينتقد التّقنيات التي توخّتها الفرقة، وراح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخرون يقيمون المقارنات «الثقافية» بين هذه الفرقة وتلك.

كانت تعرف كيف يحدث الأمر في «تونس» بعد حضور عرض موسيقي، فرصة مناسبة للتبجّج بالمعارف واستعراض الثقافة. وعلمت من الإنارة التي أصابت المكان أن العرض قد انتهى؛ ورأت أنه لم يكن قد انتهى بعد مما هو عليه، وهو يحيّي الجمهور رفقة أصدقائه عندما عزف المغنّي الرئيسي بهم. وحدّقت إلى قامته الطويلة النحيفة المنحنية، وراحت تتساءل عن مدى ثقل تلك الأمور. واستوت قامته ورفع رأسه وراحت عيناه الثابتتان تمشطان القاعة؛ ووقع بصره عليها وكفّ عن رحلة الذهاب والإياب.

حدّق إليها في ثبات. واخترقها. وضاق الكون وضاق وضحل، حتى تحوّل إلى ذرّة نحاسيّة ضئيلة ترتعش بلا هوادة على الخطّ الأفقيّ الافتراضيّ الجامع لبصرهما. وتراقصت الذرّة على السلّم الموسيقيّ الذي يصلهما فخاضته صعوداً ونزولاً وجيئة وذهاباً لتكتب قصّة موسيقيّة في سرعة زئبقيّة، لم يتمكّن بصرهما من تبيّنها. وانتهت رقصتها المجنونة على حين غفلة منهما، فاختفى السلّم الموسيقيّ واختفت المساحة الافتراضيّة، وهوت الذرّة على الأرض أمامها وتفتّتت فتبخّرت.. وجرّدتها من كلّ ما كانت عليه يوماً.

واهتزّت كلّ فرائصها عندما وقعت يد على كتفها:

- رهان!! مرّ زمن طويل لم أرك خلاله!!

نفضت رأسها لتزيح عنها الضباب الذي لفّها، ورأت خليل رفيق القصبة أمامها، فانبسطت أساريرها دفئاً للذكرى، وقالت في حفاوة:

- خليل! متى انضممت إلينا؟!

- لقد أرسلت لي راية رسالة هاتفيّة فالتحقت بكما؛ ولكنّ المكان كان مظلماً، وما وجدتكما إلاّ عندما انتهى العرض. كيف حالك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بخير. يسرّني أنك هنا.

وقالت راية:

- هلاّ خرجنا؟ المكان مكتظ ونحن نقف في منتصف الطّريق معطّلين حركة الخروج.

غادروا القاعة بعد برهة من فعل الاكتظاظ. وما إن صاروا في الخارج حتى توقّف خليل عن السّير، وقال في حماس:

- ما رأيكم في أن ننضمّ إلى الرفاق؟ سيجتمع الشّمل في مقهى «مسك اللّيل» بـ«باب بحر».

فقالت راية مشاركة إيّاه الحماس:

- أجل! أجل!مضى زمن طويل لم نرهم خلاله! لكن علينا أن نعثر على موزّع آلي قبل ذلك. ما رأيك رهان؟

فأجابت في امتعاض بعد برهة من السّهوم:

- هيّا بنا.

ولم تجرؤ على مفاتحة صديقتها برغبتها في العودة الفوريّة إلى غرفتهما في المبيت الجامعي في «تونس». واتّجهوا نحو الموزّع الآلي المحاذي، حيث سحبتا النّقود التي أرسلتها إليهما أسرتاهما. وكانتا بصدد توضيب المال في حقيبتيهما، عندما مرّ بالقرب منهما العمّ «مولدي» متّجهاً إلى سيّارته مصحوباً بـ«أوان» وبالفتى الذي كان يغنّي، ما إن لمحه خليل حتى اتّجه نحوه وحيّاه في حرارة، ولوّح العمّ «مولدي» لهما قائلاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- البنات! إن شاء الله معرفة طيبة!

فحيّاه بينما أوصله أوان إلى السيّارة من دون أن يفارق بصره الفتاتين، وقالت رهان أثناء ذلك في قلّة صبر:

- هلّا وجدنا سيارة أجرة ورحلنا من فورنا؟

فأجابتها راية:

- يبدو أن «خليل» قد التقى صديقاً له. علينا أن ننتظره.

- انتظريه لو شئت. أمّا أنا فسأنتظركما في المقهى. عليّ أن أرحل.

ولم تنل راية فرصة لإجابتها، إذ سرعان ما انضمّ أوان إليهما:

- إذن ما رأيكما؟ هل أعجبكما العرض؟

لم تحوّل رهان بصرها عن الطّريق، متشبّثة بشبح سيّارة أجرة قد تمرّ شاغرة وتأخذها إلى أبعد مكان ممكن عنه، بينما أجابت راية:

- نعم لقد كان عرضاً رجّاجاً. من الواضح أنّكم في غاية الانسجام.

- ماذا عنك رهان؟

لم تجد ما تقوله، ولم يكن يسعها أن تخبره أنها لم تسمع غيره، ولا أنها لم تتبيّنه، ولا أن كلّ ما وصل مسمعها كان عبارة عن شخوص شبحيّة كانت تمرّ كالأطياف أمامه أو خلفه أو إلى جانبه، فتقول عبارات لا يسعها فهمها، وتقدم على حركات لم يتسنّ لها رؤية منتهاها، تبّاً! أين سيّارات الأجرة؟! وقالت في مراوغة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا يسعني أن أختزل عرضاً مماثلاً في عبارة أو عبارتين. ولكنَ العرض إجمالاً كان مشحوناً، ويستحقّ أكثر من عبارات الإطراء.

فضحك في برود، ثمَ وجَه الحديث إلى خليل الواقف على مقربة منهم، وهو بصدد تبادل أطراف الحديث مع الفتى:

- صديقي، أين ستذهبون؟

فانضمَ إليهما رفقة الفتى الذي كان يغنّي وقال:

- سنذهب إلى مقهى «مسك اللَيل» بـ«باب بحر».

فقال الفتى المرافق لخليل:

- هذا رفيقي «خليل»، لطالما ناضلنا معاً في الكليَة!

وتصافحا. فقال خليل بدوره:

- راية ورهان رفيقتانا من «تونس». وهذا رامي صديقي وزميلي في الفرقة.

وتصافحوا بدورهم، وعاد كلّ من رامي وخليل إلى حديثهما وحدَق «أوان» في نفاد صبر إلى ساعة هاتفه، وأوقفت رهان أخيراً سيارة أجرة وارتمت فيها، مضطرَة خليل إلى إنهاء حديثه، وسمعت رامي يقول:

- سنلتقي مع بقيَة الفرقة اللَيلة في بيت صديق لنا. يسرَنا أن تنضمَوا إلينا متى شئتم.

ورأت أوان يقترب من نافذتها ويطلب منها هاتفها، ثمَ سرعان ما نقر لها رقمه فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسجّله، وقال في بروده المعتاد:

- اتّصلي بي إذا قرّرتم الانضمام إلينا.

وحدّق إليها برهة قبل انطلاق السّيارة، ولم تنبس بكلمة فأردف عالياً مع انطلاق السّيارة:

- سألتحق بكما هناك.

ابتعدت السّيارة، وضربت رهان رأسها على ظهر كرسيّها في عجز، وربّتت راية عليها باسمة، وقالت:

- لقد تعرّف إليك منذ الوهلة الأولى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة الرّابعة

في مقهى «مسك اللّيل»، كلّ ما كانت تتمنّاه لم يكن يتجاوز أن تعود إليها قدرتها الحسيّة الكاملة. كانت تشعر بالخدر يسري في كامل أعضائها، كما لو كانت ثملة. ولكنّ الأمر لم يكن يشابه حالة السّكر ولا الثّمالة، إذ كانت كلّ حواسها متنبّهة لكلّ الحركات والإيماءات حولها في هوس متقطّع وتوتّر ناهش. وكان لها القدرة في الآن ذاته على تجاذب أطراف الحديث مع أترابها، وعلى تبادل الابتسام وعبارات الحفاوة. وكانت أسهل الأمور وأحبّها إلى قلبها تتمثّل في خوض غمار نقاش حادّ طارئ، أو في محاولة التّوفيق بين رأيين متضاربين دائماً تجد بينهما خيطاً رفيعاً يوحّد الفكرتين، فتقنع صاحبي الرّأيين أنّهما قد اتخذا المنطلق ذاته بينما كانت الوجهتان مختلفتين، أو أنّهما يبحثان عن الغاية ذاتها في حين أنّهما قد انطلقا من منطلقين مختلفين، أو أنّهما يخوضان الضّدد عينه ولكنّ اختلاف المصطلحات هو الذي فرّقهما.

كانت تفضّل خوض عباب مواضيع وشواغل نظريّة وفكريّة مماثلة، على أن تظلّ فريسة حواسها المقتنصة لكلّ وجه مارّ بقربها أو خلفها خشية المفاجأة بحضور مباغت. جزء داخليّ منها، كان قد تناول نسبة غير ضئيلة من تفكيرها، وكان قد جلس القرفصاء داخلها ليعرض على شاشة ذهنها مراراً وتكراراً أطوار لقائها بأوان، فيعيد الشّريط عوداً على بدء، ويستعيد كلّ ما صدر عنه من كلمات أو من غير كلمات، متمحّصاً باحثاً منقّباً عن أمر لم تتبيّنه. وكانت تترك الحريّة لهذا الفريق المستقلّ فيها ليقلّب الأمور التي يبتغيها كما شاء، إذ لم يكن الظّرف ليحمل بين طيّاته إمكانيّة تسمح بردعه ولا بتهديده ولا بترويضه.

طرف آخر كان يلحّ عليها بالعودة الفوريّة إلى «تونس» منتحباً باكياً متوسّلاً. لم تكن تفهم لماذا كان هذا الطّرف قد اتّخذ لنفسه فيها ركناً ركيناً منزوياً مظلماً ورطباً، وقد ضمّ نفسه بنفسه في شكل كرويّ وراح يتململ على وقع الكلمات ذاتها التي يردّدها في عناد طفوليّ، حتّى أفقد كلماته المعنى في إصراره المرضيّ: «هيّا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نروحو.. هيا نروحو.. هيا نروحو..».(45)

وكانت امرأة غجريّة فيها واضعة وشاحاً على كتفيها تجلس عند آلة خياطة موقّعة برجلها عليها، ساحبة القميص الذي تخيطه الآلة بيديها، مدخّنة سيجارة، في هدوء، كانت تحدّق إليها في حنوّ وتبتسم لها في تشجيع، قاصّة عليها خرافة «يورونا»(46).

وبين هذا وذاك كانت تتبادل الحديث وتتناقش ورفاقها في القضايا السّياسيّة الرّاهنة، وتتوجّس حضور أوان المباغت، وترنو بنظرها إلى راية التي كانت تتهامس وخليل في شأن رامي الوسيم منذ برهة طويلة.

رهان تنتظر العودة إلى تونس. وراية تتوق إلى قضاء السّهرة التي دعيت إليها. رهان تترقّب غياب أوان. وراية تترقّب حضوره. راية لم تكن على ما يرام منذ زمن. لا مجال للنّقاش. ستقضيان اللّيلة في سوسة لأنّ أوان كان قد جاء مرفوقاً بصديقه. وكانت تعتمد على نرجسيّته حتّى تتفاداه. ليكن لراية ما شاءت، ولتقبع هي متوثّبة للقاء الفجر والرّحيل إلى تونس.

وبين التّوق والانتظار أمسيا برفقتهما.

إذا كانت مقولة أنّه كلّما كان هناك شقيقان فلا بد أن يكون أحدهما مرحاً ساخراً والآخر جديّاً عاقلاً، صحيحة، فإنها تنطبق أيّما انطباق على الانطباع الأوّل الذي حظيتا به منذ رأتا رامي وأوان معاً. وهما معاً كان تباينهما يسلّط الضّوء على سماتهما. أوان قليل الكلام، كثير الملاحظة، متسلّط، دائماً يأخذ زمام الأمور. رامي في المقابل بشوش، حديثه ممتع، يروي الكثير من المغامرات التي دائماً كان يخوضها مع أوان في صوت حلقيّ أبحّ. كان يبدو وكأنّه ألِف نظراته الزّادعة، فلا يقف أمامها ولا تثنيه عن الحديث، بل تشحنه للخوض في تفاصيل حتّى يسخر منه في شيء من الدّعابة.

كان من البيّن أنّه يرغب في استمالة راية. وكيف يسعه ألاّ يفعل؟! راية لم تتمكّن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من عدم الانسجام مع حكاياته وقصصه التي يزعم أوان في ضجر أنه قد استمع إليها عشرات المرّات، وأنها في كلّ مرّة تكون مختلفة أيّما اختلاف عمّا سبق وأخبره به.

رامي لم يكن بوسعه ألاّ يحوّر القصّ حسب ما يراه من تعابير على مخاطبه. كان يحبّ أن يزيد تفاصيلَ من صنع خياله أو أن يقترض بعض الأحداث من قصص أخرى ليزوّد بها الحكاية التي يرويها. وما كان هاجس أوان في البحث عن الحقيقة ليثنيه. كان يعلم أنّه دائماً ما ينعت بالكاذب، ولكنّ الأمر لم يكن ليقلقه البتّة. السبق يبقى للقصّة. عليها أن تثير السّامع وتشوّقه وتجعله ينشدّ إلى أدقّ تفاصيلها. يكذّبه أوان مرّات ومرّات في شيء من التّعب فلا يتوانى. ويمضي في سبيله ذاكراً أن الأمر قد انغرس في ذاكرته تلك المرّة على تلك الشّاكلة. يقول إن ذاكرته خصبة خيالاً ولا يسعها إلاّ أن تكون مرنة مع الحاضر، وأنّ الحاضر هو الذي يسوغ الذّكريات.

راية كانت تتألّق حماسة.. رهان كانت متوجّسة. أوان لم يحوّل نظره عنها. رامي لم يكفّ عن الحديث والتّخييل، عن الخوض في تفاصيل وهميّة تتسلّق حلقه فيتعبها وتتعبه، ويتصدّى لها ويوقّعها وتنال منه. كان الحديث يخرج من حنجرته كائناً ملوّناً ينبض حياة وينسبغ بشيء من روحه ومن وقع تعابيره وأطرافه، وهي تظلم وتنفجر وتنبسط أمام الأحداث فتوقع بكلّ ما على الطّاولة، وتنسكب المشروبات على أصحابها. يمسح على عجل ما انسكب ويرتّب ما وقع مغمغماً في اعتذار متشابك مع بقايا الحكاية. فيتناول أوان المنديل منه ويكمل عنه المهمّة، ويطلب منه أن يواصل حكاياته المزعومة.

كان أوان يصغره بعدد قليل من السّنوات، ولكنّه كان من يرتّب الفوضى التي يسبّبها أخوه. كان سنده شأنه شأن قيثارته. كان الصّمت الذي يحتاجه رامي وكان الرّدع الذي يجتاجه. وكان جدار الصّدّ لكلّ من تساوره نفسه بالنّيل من جموحه ومن تلقائيّته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

تشعّبت الكثير من القصص منذ ذاك المساء. راية عثرت على الجانب الآخر من القصبة، حيث كانت خيمة رامي راكنة ولم ترها. تذكر أن الحظّ حالفها في ذلك. كانت في حاجة إلى الخيبة والنّدبة لتلقاه. رامي يلعن النّدبة ويقول إنه لن يغفر لنفسه فعلتها، لأنّه لم يعثر عليها فيما سبق، ويأسف على التّأخير. قال إنّه تعثّر بين عدد لا يحصى من أخريات كان يعتقد في كلّ مرّة أنها كانت موجودة بينهنّ. كان الحبّ بينهما حلماً واعداً ممتداً حتّى الأبد..

في المقابل، كان أوان يدعوها لتعيش اللّحظة معه؛ فهو يقدّسها ويمقت الوعود. رهان لا تقول. كانت تنصهر في حضوره الوقّاد ولا تتخيّل العمر من دونه. أوان يذكر أنّه كان يعتقد أن لقاءها مجدّداً ضرب من الجنون. وهي تقول جنون أنّه موجود، وأنّ نظام الكون يعود إلى صمت قيثارته الخافت. يقول إذا كانت قيثارته سبب ترتيب الكون، فإنّ ما تكتبه هي من إمكانات هو سبب فوضاه.

كان يحبّ لعبها، وهي تعيد كتابة «غاتسبي العظيم»(47) وهو يتلقّى مكالمة هاتفيّة من «دايزي» قبل أن يفوت الأوان، وهي تجعل من «أوومامي» تتمكّن من اللّحاق بـ«تانغو» وهو يكتشف القمرين في سماء 1Q84(48)، ويستمع «هاذكليف» معها إلى كلام «كاثي» كاملاً قبل أن يهجر «مرتفعات واذرينغ»(49)، ويحفر «رجب» في «شرق المتوسّط»(50) خندقاً ويفرّ منه على طريقة «مظفّر النّواب» ولا تعرف سجائر الجلّاد موضعاً من جلده، وتختار «لمياء» «مروان» رقم واحد في علاقاتها زمنيّاً، فتمسي كلّ السّنوات العشر لا شيء غير ليلة طويلة للغاية(51)... كانت تكره الإحباط والخذلان ومداهمة لحظة الـ«الكدت أن» أحدهم. كانت تدافع عن شخصيّاتها المفضّلة وتهديهم واقعاً بديلاً. تقول إنها تحاول ألاّ تفقد القصّ حبكته، ولكنّ الإمكان السّرديّ لا يضمن سلامة ما تمارسه الشّخصيّات على متنه.

كانت ترتعش وحدة أمام الحبّ القابع بينهما. كان صداعاً دائماً يشبه وجع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الشقيقة». أخبرته ذات مرّة أنها لو كانت قرص دواء لكانت تركيبته الكيميائية من نوتات أغنية «for blue skies»(52). ضحك مغمغماً في حنق، وأخبرها أنها لو كانت قرص «for blue skies» لكانت قادرة على تحريره من الصداع الذي تسبّبه له. كان الصداع دائماً بينهما، وكانت علاقتهما متصدّعة لا غنى عنها. وكانا ينكرانها أيّما إنكار.

في هذه الأثناء، كانت أرجاء البلاد التي لم تشهد الثورة إلاّ منذ زمن قصير نسبياً مبعثرة. خسر اليسار الانتخابات التشريعيّة بطريقة مخزية فتكوّنت الجبهة الشعبية. الحلم بالوحدة كان عريقاً. كانت الجبهة أحد مكتسبات الخيبة، حتى راودها الانكسار بفقدان شكري بلعيد(53)، وبقرار اعتصام باردو(54) بعد موت البراهمي(55).

كانت تلك هي المرحلة الأصعب في حياة من ألف الشارع والتظاهرات والمواجهات مع الأمن. من ألف أزقّة العاصمة حتى يتمكّن من الفرار من دوريات البوليس، ومن تعلّم تقنية إرجاع عبوّة الغاز المسيل للدموع في وجه من يرميها صوبه، ومن أصبح مدمناً على تلك الرائحة، ومن ألف أن يلقى من يحبّ ووجهه يقطر حليباً أو كوكاكولا، ومن رفع العصيّ والحجارة في وجه البوليس أثناء مواجهات «جان جوريس» الخالدة في ذكرى عيد الشهداء من سنة 2012 (56).

عرفت تلك الفترة زخماً في صفوف الأحزاب اليساريّة ونفوراً منها في آن.. عدد كبير من «المناضلين» القدامى خرجوا عن أحزابهم، وجرى استبدالهم بأعداد غفيرة من شبيبة جديدة. من مكاسب الثورة كذلك حسابات فيسبوكيّة ترد تحت اسم «الشيوعيّ الأخير» و«princesse guivara». قال البعض إن سبب فشل اليسار في الانتخابات يتمثّل في انغلاقه وتزمّته. ويقول البعض الآخر إن السّبب يعود إلى تعريف الشيوعيّة للمواطن في شكل عبارة «علم تحرير البروليتاريا». ويقول آخرون إن العيب يعود إلى شكل «المناضلين» المشعّثي الشعر. فالفتية يبدون مخنّثين بسبب الأقراط التي يضعها بعضهم، والفتيات يبدون مسترجلات بسبب قصّات شعورهنّ القصيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكاثرت المقزات في المقابل، وتضخمت الواجهات المكتوبة عليها أسماء الأحزاب بخطّ عريض. وتعالى دعاء زياد الرّحباني بالرّحمة لكارل ماركس ولوالده اثنتي عشرة مرّة(57).

وكانت تلك الفترة تحمل بين طيّاتها أبشع الخيبات. يوم دفن أوّل قتيل سياسيّ على الأخصّ. كانت الأيادي المتلاعبة بيّنة لمن كان في عين المكان. وكان التواطؤ كذلك بيّناً لمن كان في عين المكان. اكتفى الحشد بالبكاء على الفقيد ونعيه وبالدّعاء له بالنّوم الهنيء ثمّ عادوا أدراجهم.. حشود غفيرة كثيرة لا تحصى ولا تعدّ عادت أدراجها إلى بيوتها ركضاً وسط أصداء عن ميليشيات من باب دزيرة(58) ستداهم المكان بالسّيوف، ووسط عجلات انتزعت من السّيّارات، وجرى حرقها، ووسط عصا البوليس بطبيعة الحال. لسبب مماثل كانت تكره الأمل. لشدّ ما تمقت الأمل!!

راية أقسمت على السّفر بعد تلك الحادثة، إذ لم يعد هناك من سبب يبقيها في بلاد يُرجّح أن الأغلبيّة فيها قد تخيّرت نظاماً سياسيّاً مخصوصاً، والأقليّة فيها قد قرّرت الانصياع إلى مقتضيات الحريّة الفرديّة، وهي في الحالتين لا علاقة لها بالأمر. فقد نسي الجميع السّبب الجوهريّ الذي مات لأجله الآلاف. ذكرت أن الإمبرياليّة عالميّة، وأنه ولا بد أن تجد لها وطناً تقاومها من جبهته.

البقيّة اكتفوا مشدوهين. فالخيار لم يكن واسعاً بين إمبرياليّ يحمل سبحة صلاة، وآخر يدخّن السّيجار على رأي أهل الفيسبوك.

أوان راح يستمع إلى أحاديث والدته الجزائريّة الأصول عن العشريّة السّوداء في الجزائر(59). ذكرت أن الأمر قد وصل بالإسلاميّين حينها إلى قلي الأطفال في الزّيت الحامي. كانوا يفجّرون رياض أطفال ومدارس. تفكّكت الفرقة الموسيقيّة بعد وقت غير طويل. وكفّت رهان عن التّلاعب بالإمكانات السّرديّة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تغيّرت كلّ الأمور فيهم وبينهم. والدة أوان تقول إن البعض كان يقول إنّ النّظام السّياسيّ الجزائريّ وراء تلك التّفجيرات، ولكنّه أوكل الأمر إلى الجهاديين، حتّى يتمكّن من تصفيتهم بعد النّجاح الذي عرفوه في الانتخابات.

وخلال ذاك الخذلان تحوّلت حياتيهما إلى قصّة الحزن الأحبّ إليهما.. صارت رهان أكثر مكابرة وصمتاً، وأمسى هو أكثر زئبقيّة وعدم اكتراث.

كانا محاصرَيْن في قصّة مرتدّة بين الانجذاب والتّباعد، الانتماء والتّلاشي، الانصهار والانعتاق. كانت الخيانات كثيرة. أرساها هو، وانغمست هي فيها وكان العود الأبديّ من مصيرهما، وكان الرّفض الأبديّ من مصيرهما.

لا شيء أخطر من المصادفة التي جمعتهما، وأرستهما حتّى ذاك «الآن-هنا». كانت تشبّهها بحادث سير يسبّب إعاقة دائمة تقلب حياة المصاب رأساً على عقب. ولم يكن للحياة من معنى من دون تلك الإعاقة. ولكنّها المكابرة بينهما.. تحول دون تكوين «نحن» بينهما. وينسلخ كلّ منهما من ذاك «النّحن» المستحيل. شاقّ هو الانسلاخ. ويبقى أصعب ما في الأمر هو دعوة الـ«نحن» المقبلة التي تنسيك الوجع السّابق.. كيف للمرء أن يضرب عرض الحائط كلّ ذاك التّوازن الهشّ ليرقص داخل دوائر الآمال على وقع خطى متباعدة من جديد، وينسى الوجع؟!!

على كلّ حال، كان دائماً هناك آخر جديد وأخرى جديدة بينهما. قصّتهما كانت دائماً يشاركهما فيها ثالث. دائماً ما يستوجب أمرهما ثالثاً، حتّى ترى عباراتهما النّور.. الثّالث هو دائماً النّذر الذّي يضحّيان به حتّى يكونا «النّحن».. والثّالث هو القربان، والثّالث هو ذلك الخيط الرّفيع الذي حاولا في كلّ نفس منهما أن يقطعاه.. وكانا دائماً يعثران لهما على ثالث.. كلّما أزهقا روح ثالث سابق..

كلّما حارب أحدنا الآخر ومعه ثالث، إن كان حليفه أم حليفها، فالثالث سيموت لا محالة.. إن لم تقتله هي كان هو الفاعل.. وكذلك حوّلا الأرض إلى خواء، ورصّعا السّماء بنجوم كثيرة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راية تقيأت قرفاً يوم وجدت نفسها في اعتصام باردو، وكتفها تلامس كتف فتى دستوري سابقاً، كان قد ارتاد الجامعة معهما وكتب فيهما ما لا يحصى من تقارير. كان الفتى سبباً لتتحوّلا إلى ملف في وزارة الدّاخليّة فيما مضى. ها هو يقبع إلى جانبها ملتقطاً لنفسه «سيلفي» في الاعتصام. لطالما انتابها التوجّس مذ منعوها من رفع شعار «سحقاً سحقاً للرّجعيّة. دساترة وخوانجيّة» مراعاة لمشاعر الحليف الجديد..

حظيت بمنحة جامعيّة، وغادرت تونس على الرّغم من توسّلات رهان، ومن الصّمت الذي اكتنف رامي عندما سمع الخبر.

وعدها أن يلحق بها، وظلّت علاقتهما صامدة على عكس كلّ التوقّعات. ولم تكن الحياة سهلة المراس على أحد منهم أيّما كانوا. رامي وأوان لم يفترقا البتّة. أوان كان يبتعد عنها إلى أخرى وعن رامي في أحيان كثيرة بالغياب؛ ولكنّ رامي كان صبوراً.. يفقهه.

أخذت المتاعب الماديّة تتضخّم شيئاً فشيئاً، تضخّم الميزان التّجاريّ. سمعت أن وضعيّة عائلة أوان قد أصبحت أكثر حرجاً ممّا كانت عليه. فقد طُردت والدته، وهي المعيل الوحيد للأسرة، بعد وفاة والده، من المصنع الذي كانت تعمل فيه. انقطع كلا الصّديقين عن الدّراسة. أوان كان عليه أن يعيل والدته وأخاه. ورامي لم تقبله أيّة جامعة لمواصلة الماجستير، فرصيده لم يكن كافياً بالنّسبة إلى النظام الجامعيّ الذي راح ينحو صوب التّلقين والخوصصة والعلاقات الشّخصيّة، ونهاية أسبوع بغرفة في فندق بالحمّامات.

كان يتدبّر أمره بالغناء في الملاهي اللّيليّة، حتّى يتمكّن من تسجيل بعض الأغاني التي وضعها هو وأوان، وحتّى يسافر في العطلة للقاء راية. كان يكره أن يغنّي ما يغنّى هناك، ولم يكن يملك بديلاً. سخر منه الكثيرون، وكان يعبأ كثيراً، ويخفي كلّ ما يخترقه ساخراً كما تعوّد.

حتّى رامي تمكّن اليأس من التسلّل إليه، عندما قضى شهوراً طويلة هو وأوان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلحين قصيدة «ديناصورات نحن»(60) من دون أن تلقى رواجاً.

لم تنقطع أخبار راية عنهم، ولكن لم يكن أحدهم يملك الوقت الكافي، ولا الطاقة اللازمة، للاستماع إليها في الـ «skype» ولا للتعليق على صورها، وهي تتنقّل بين المعالم التاريخيّة والحضريّة في الفيسبوك.

قلب غيابها كلّ الموازين. فقد كانت جزءاً من التوازن الذي يوحّدهم. وبغيابها راحت آخر شعلة من الحماس فيهم تخبو وتفتر شيئاً فشيئاً. راية كانت أوّل من فتح الباب أمام إمكانية الرّحيل والغياب. كانت أوّل من صاغ أنّه ما من طائل يرجى من البلاد، في شكل تأشيرة سفر. كانت تسلّط الضّوء من خلال حضورها الافتراضيّ على عبثيّة اليوميّ الذي يمارسونه.

رهان كانت تتقلّب بين الوظائف المتعدّدة غير قادرة على الاستقرار في مكان ما. تتقلّب بين ألوان الشّعور. تتّصل براية كلّما داهمتها لحظة، غادرة كانت أو مضحكة، أرادت أن تشاركها إيّاها. في كلّ مرّة كان الموزّع الصّوتيّ يصفعها. أحياناً كانت لكنتها تتغيّر وأحياناً تحتوي جملها على مفردات غريبة هي التي تصنعها.. وقد تحتوي الجملة الواحدة على أكثر من لغة ورمز أدبيّ لا يعرفه غيرها.

عملت ككاذبة في مركز اتّصالات لشهور كثيرة باسم جاكلين. و«Jacqueline» هاته فتاة باريسيّة تعمل في شركة تأمين فرنسيّة تتّصل بالحرفاء لتستجوبهم، وتعرّف لهم خدمات الشّركة وتستدرجهم لتغيير نظام تأمينهم. في الواقع كانت رهان تتفنّن في مهنتها، إذ لم تكن «Jacqueline» على الدّوام، بل كانت تحوّر من اسمها بحسب لقب الزّبون الذي يرتسم أمامها في الشّاشة، قبل أن تتصل به. فكانت «Petra» إذا بدا أن الزّبون من أصول ألمانيّة، وتصبح «Carla» إذا بدا من أصول إسبانيّة، وتعلمون أمام أيّ نوع من الزّبائن كانت تمسي في حنين إلى «بختة»..

كان مركز الاتّصالات مقسّماً إلى عدد من القاعات. كلّ قاعة تحتوي على عدد من المكاتب، زوّد كلّ منها بحاسوب وسمّاعتين غليظتين وميكروفون ورقابة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجير الذي قد يقتحم المكالمة متى أراد ذلك. وتمتلئ القاعة بالأعوان. يعتمرون السَمّاعات وتبدأ العمليّة المجنونة. يقتحم الكلّ منازل أشخاص لا يعرفون عنهم شيئاً غير الاسم والعنوان. يعيد كلّ منهم السيناريو المكتوب أمامه في شكل آليّ. يعيد الكلّ الجمل ذاتها. ويتعرّض الكلّ لإهانات فرنسيّة متماثلة مرّات ومرّات أثناء محاولاتهم استدراج الزّبائن إلى شركة التّأمين. نسيت رهان كلّ العبارات الفرنسيّة التي تعرفها، وأصبح خطابها اليوميّ لا يخرج عن «sans indiscrétion de ma part»(61)، و«l'indiscrétion»(62) في الواقع لم تكن يوماً «de sa part»(63)، فقد كانت بعيدة كلّ البعد عن الاهتمام بأيّ أمر من الأمور التي تخرج عن قوتهم اليوميّ. يجتمع كلّ الأعوان في وقت استراحة مضبوط وحاسم، لا يتجاوز الرّبع ساعة. تشتعل خلالها السّجائر الكثيرة، وتغمرهم السّحابات الرّماديّة، وتتخلّل عظامهم في نهم؛ ليعودوا إلى الخطاب الآليّ ذاته.

كان العمل ينهشها في نهاية كلّ نهار. رأسها كان يعجّ في ازدحام سيّارات صباحيّ بالمكالمات المتشابهة التي أجرتها. كانت تصرخ في وجه كلّ من يتّصل بها عندما تنتهي من العمل. ولم تكن تفقه كيف يمكنها أن تميّز بين خطاب العمل وخطابها اليوميّ. ولم يمرّ وقت طويل، حتّى اكتشفت أن المهنة بعيدة أتمّ البعد عن مفهوم العمل، وإن كان مفهوماً نسبيّاً، عندما طال الرّنين يوماً ما وهي تنتظر من المخاطبة المجهولة أن ترّد عليها، وتستمع إلى خيبة المرأة العجوز الوحيدة التي أشقاها الوصول إلى الهاتف والتي كانت تتوق إلى سماع أخبار ابنها الغائب. كان الابن جنديّاً بالنّسبة إلى رهان، وكانت الأمّ تنتظر عودته من الحرب. بالنّسبة إلى رهان لم تغلق الأمّ الهاتف في وجهها، بل المرأة هي التي وقعت أرضاً. فهمت فيما بعد أن الصّورة التي زارتها قد تسلّلت إليها من فِلم «Saving Private Ryan»(64). غادرت يومها العمل نهائيّاً من دون أن تنال أجرتها الشّهريّة بطبيعة الحال، ليرافقها الذّنب أينما وقع بصرها على أحد مشوّهي الحرب. وكانوا كثراً...

عملت فيما بعد في محلّ مرطّبات، وخبرت بفضله الذّباب والبدانة.. نهمها وشهيتها المفتوحة على الحلويات كانا رهانين قويين ربحتهما. ثمّ سرعان ما طردت منه عندما انكشف أمر بيعها المجّانيّ لشطيرة خبز لطفل متوسّل يقبع يوميّاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام المحلّ.

استعملت ردحاً من الزمن كلمة «persona»(65) كثيراً في شكل تشابيه مختلفة. كانت تنفجر ضحكاً كلّما تلفّظت الكلمة التي لا تقولها إلاّ في تملّقها الفرنسيّ المسرحيّ شادّة على كلّ حروفها. أثار الأمر ريبة أوان الذي حاول أن يجاريها في التّملّق ليفهم ما الذي يدور في رأسها. ولحسن الحظّ انتهى به الأمر إلى إقناعها بأنّه سيزجّ بها في السّجن. قالت إنها لم تكن تعرف أين عليها أن تتموقع، وقال ساخراً إن الأمر يشبه السّبق الصّحفيّ.

كاد يجنّ يوم رأى وشماً ممتداً على كامل ظهرها:

«We're the middle children of history, man. No purpose or place. We have no Great War. No Great Depression. Our Great War's a spiritual war... our Great Depression is our lives. We've all been raised on television to believe that one day we'd all be millionaires, and movie gods, and rock stars. But we won't». (66)

- man!! نصّ كامل يا رهان!! نصّ كامل!!

- تعلم أنّني لا أجيد الاختزال!!

- برّى عدّي الكاباس(67) يرحم بوك وأخطاني!!(68)

غادر بيته هو ورامي غالقاً الباب خلفه في جلبة. واجتازت الكاباس ولم تنجح.

ثمّ كان من نصيب أوان ورامي نقل كلّ ما تحمله الشّاحنة الكبيرة المركونة أمام بيتهما من أثاث رهان ومتاعها. فقد احتال عليها أحد السّماسرة وزعم أنّه صاحب المسكن الذي أراها إيّاه. وبذلك سرق منها أجرة شهريّ عمل كانت تمقته. بكت كثيراً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثناء تلك اللَيلة التي قضتها عندهما، ورفضت الحديث إلى راية على «skype».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة الخامسة

قرّرت العودة إلى عائلتها. بطبيعة الحال لم تحمل معها الأثاث الرثّ الذي تمتلكه منذ أن كانت تسكن مع راية، فقد كانت تعلم أن والدتها لن تقبل أن يدخل الركام بيتها، ويحبط الأرائك الزاقية.

في المسكن العائليّ الواقع في الضّاحية، لم تكن تعرف أحداً. فقد رحلت راية. تزوّجت الفتيات اللّواتي كانت تعرفهنّ. ورحل الكثيرون إلى أصقاع بعيدة. والداها كانا غائبين في أعمالهما، وعندما كانا يعودان كانت حصّة التّقريع قاسية. تخرج حياتها من فمهما قطاراً من الفشل يجرّ العربات في وهن وتخاذل، ويصفّر في خمول بعد أن كان قد سلك ما وسعه من إمكانات فاشلة. القطار كان غبيّاً، متكلّس الذّهن. لم يكن قد وفّق في أيّة طريق كان قد سلكها. كان كلّما وجد نفسه أمام اختيار وقع على الإجابة الخاطئة. وكذلك كانت حياتها تعرض أمامها، سلسلة من الأخطاء المتولّدة عن أخطاء أكثر عراقة.

باغتت والدتها ذات صباح تشتكي أمرها في مكالمة هاتفيّة، وقد بدت أمارات التّعاطف على جبهتها المنكمشة «دبّتها عيانة»(69). تظاهرت بعدم الاكتراث، وولجت المطبخ، وجلست على الطّاولة محتسية قهوتها الصّباحيّة المرّة. أنهت والدتها المكالمة على عجل، واتّخذت لنفسها مقعداً محاذياً لها، واضعة رجلاً فوق أخرى في رشاقة. وقالت:

- طلبت منك مئات المرّات أن تسوّي من ظهرك عندما تجلسين.

كانت أمّها امرأة جميلة لم تنل منها السنوات ولا الحمل والوضع والإنجاب. لم تكن رهان لتفهم كيف لامرأة بمثل هذا الرّقيّ أن تضعها. نشأت أمّها في عائلة غير ميسورة الحال عن أب موظّف وأمّ بسيطة وإخوة لكلّ منهم مركزه المرموق حالياً. كانت متفوّقة في الدّراسة منذ نشأتها. ارتادت كليّة الطّبّ بتونس وكرّس والدها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلّ جهوده ليمكّنها من إكمال تعليمها. كانت امرأة فذّة تغتنم الفرص وتحسن التموقع، ذات بصيرة نافذة، تجيد فنون التنبؤ والاستراتيجيّة.

- عندما كنت في سنّك، لم ينفك أهلي يطلبون منّي الزّواج بأحد المتقدّمين الكثر لخطبتي. أتعلمين بماذا كنت أجيبهم؟

واصلت حديثها من دون أن تنتظر الإجابة التي تعرفها رهان.

- لم أكن بدوري أنفك عن إخبارهم بأنّني لن أتزوّج إلاّ من شخص مرموق مميّز. يدفعني إلى الأمام ويرتقي بي في السّلم الاجتماعيّ. ما الطّائل من الزّواج بشخص من طبقة متوسّطة مثلي؟ وحتّى متى ستظلّ الحاجة متشبّثة بتلابيبي؟

كانت رهان تحدّق إليها وتنغمس في الحاجة والتّلابيب. كانت أمّها امرأة نافذة تجيد إلقاء الخطب والتّأثير في السّامع. في كلّ ظرف طارئ مماثل، كانت رهان تعرف كيف تضغط زرّ «mute»(70) وتحدّق إلى والدتها ساهمة، وهي تتخيّل أن امرأة مماثلة كان لها أن تناقش ببراعتها التي لا مثيل لها العلاقات الجغراسيّاسيّة بين الكيان الصّهيونيّ والأمّة العربيّة. كانت والدتها في السّيناريو البديل في ذهنها ماثلة أمامها، نائبة في المجلس التّأسيسيّ تعرض مقترح تجريم التّطبيع مع الكيان الصّهيونيّ كفصل في الدّستور، متلاعبة بتعابيرها من دون تشنّج مفرط تحت وقع كلماتها، وملوّحة بأناملها الرّقيقة الحمراء لمن لم يحالفه الحظّ وساوره النّوم على كرسيّه في حضورها.

- لذلك يا رهان كنت أرجو منك أن ترتادي جامعة مرموقة. وحدها الجامعات المرموقة تفتح أمامك باب التّعرّف إلى شبّان مرموقين. لطالما طلبت منك أن توسّعي من دائرة أصدقائك..

أخذت منها العبارة أقساطاً كثيرة. «التّوسيع من دائرة الحلفاء والتّقليص من دائرة الأعداء» كانت ذريعة سياسيّة لبقة في الآونة الأخيرة.

- إن أنت وسّعت من دائرة أصدقائك، ستتعدّد الفرص أمامك، حينها سيتسنّى لك أن تقتني الشّاب المناسب. ولكنك ولسوء تدبيرك كنت تعانديني بشكل غبيّ وارتددتِ كليّة الآداب، ومنذ تلك الوهلة لم تنقطعي عن مرافقة «الزّوفرة»(71).. انظري إلى نفسك كيف أمسيت! شقيقتك بالأمس قد اتّصلت بنا عبر skype. أرادت أن تراك ولكنني رفضت أن أحبطها.

تنفّست رهان الصّعداء. لم يكن في وسعها ليلة أمس أن ترهق عضلات وجهها ولا حبالها الصّوتيّة لتتصنّع اللّطف والابتسام أمام شقيقتها الكبرى. رمز آخر من رموز الأنوثة في العائلة. تنهج نهج والديها وتدرس الطّبّ في كندا.

- شقيقك أخبرني أنّه سيحضر للعشاء اللّيلة رفقة زوجته وطفليه. فحذارِ من أن تطلّي عليه بشكلك هذا. لقد حدّدت لك موعداً مع الحلاّقة فاذهبي وسوّي من وضعيتك.

تنهّدت في تعب، وقالت:

- هل يمكنك أن تقرضيني بعض المال حتّى أعود لممارسة حياتي بشكل طبيعيّ؟

- لا مال عندي لأقرضك إيّاه! عندما أرى أنّك قد تمكّنت من الارتقاء إلى مصاف البشريّة، حينها فقط سأعطيك ما تريدين.

في حزن افترّ ثغرها عن ابتسامة ليلي من فِلم «الفتاة الدّنماركيّة»(72). وغادرت مكانها نحو غرفتها في الطّابق العلويّ. فقد كان وجودها أشبه بـ«بيت الخرد»(73) ضمن عائلتها..

وأثناء تلك اللّيلة، كان أبواها عند الباب الرّئيسيّ بصدد استقبال أخيها وعائلته. وكانت هي عند الباب الخلفيّ تترصّد الفرصة المناسبة لمغادرة البيت. فقد تمكّنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من عقد اتّفاق مع فتاة درست معها، واتّفقتا أن تكتب عنها رهان رسالة بحثها لنيل شهادة الماجستير، مقابل مبلغ ماديّ ستناله على أقساط.

وعادت إلى بيت أوان ورامي لتقطن معهما ريثما تعثر على عمل مستقرّ. كانا قد رتّبا كلّ متاعها، واستغلاّ كلّ الأثاث الذي تركته.

وفي كلّ هذه التّقلّبات كانوا يصنعون ما يشبه العائلة الصّغيرة المبتورة المفكّكة. بوجود رهان معهم أصبح البيت أكثر تنسيقاً وترتيباً. كانت تحبّ إطلالة المساء على بيتهم المهترئ الصّغير حين يكتسي برائحة مطبخ طازج شهيّ أحياناً وتجريبيّ في أغلب الأوقات.

جميعهم كانوا كثيري الانشغال طوال النّهار. أوان كان يعمل نادلاً في مقهى. عندما كان يعود إلى البيت يشتدّ عليه الإرهاق. وتتورّم رجلاه من أثر الوقوف. ورامي كان يدرّس في نادي موسيقى خاص، وقد يمتدّ نهاره حتّى الغناء في أحد الملاهي اللّيليّة كالعادة. رهان كانت تقضي اليوم في المكتبة الوطنيّة، فقد لاقت الرّسالة التي أعدّتها للفتاة نجاحاً، وأصبح «عملها» رائجاً في صفوف الطّلبة.

كانت السّهرات التي يلتئم فيها شملهم دافئة دفء مسلسلات الكرتون اليابانيّة القديمة المدبلجة بقلم شركة «الزّهرة». فكانت لهم في مسلسلات الكرتون «هزيم الرّعد» و«رياح الشّمال» و«صقور الأرض» حياة بديلة.

ارتجّ دماغها عندما اصطحب رامي فتاة إلى البيت. لم تكن تعلم أنّه حانق على راية. لم تلحظ أن رحلته المزعومة التي كان يخطّط لها منذ ما يقارب السّنة قد شاخت.. وعلى الرّغم من كلّ الرّكود.. لم ينفصلا..

راية عندما تتحدّث إليها كانت مفكّكة. تقول إن باريس مدينة مستحيلة من دون رامي. وباريس مدينة باهظة، وأنّه لا يسعها أن تزوره في العطلة. أخبرتها أن وزنها قد نقص جوعاً، وأنها قد أخبرت رامي أنها تمارس الرّياضة. قالت إن الغرفة الصّغيرة التي تستأجرها قد تعرّضت للخلع، وإنها لم تخبر رامي.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

رامي ضاحكاً وبشوشاً كان يهوي. قال إنه لم يعد يريد أن يسجّل الأغاني، فلا طائل من ذلك. طلب منها ألاّ تخبر راية. على راية ألّا تعلم بأمر إفلاسه ولا إحباطه ولا بالأخريات..

وحدث أن كانت كلّ الأمور بينها وبين أوان على ما يرام، إذ كان معه بعض المال فدعاها إلى العشاء. عندما عادا معاً فجر تلك اللّيلة وأرادت أن تدخل الحمّام، فتحت الباب فارتدّ في وجهها. انتابها حدس مخيف.. نادت أوان في هلع، أدركها الفتى وما إن دفع الباب في قوّة حتّى ارتعبا مما رأياه.

كان رامي ملقى على الأرضيّة قرب حوض الاستحمام فاقداً الوعي. بالقرب من شفرة الحلاقة التي غرست ندوباً أربعاً عند كتفه.

ضربا على وجهه في فزع ورشّا عليه الماء. انتفض كمن فرغت رئتاه من الماء بعد غرق. لم يكن يعرف ما الذي حلّ به. ابتسم كثيراً وتلعثم. أراد أن يسخر من الأمر. رفضا الاستماع إلى مزاحه.

أخذاه غصباً إلى غرفة أوان وألزماه أن ينام في الفراش الوحيد الموجود فيها. ثمّ ترنّح أوان ورهان حتّى غرفة رامي وجذبا فراش الفتى إلى الغرفة التي يقبع فيها. سقطت رهان على وجهها وهي تحاول جذب الفراش في الرّدهة. كادا يموتان ضحكاً. وصلهما ضحك رامي من الغرفة المجاورة. تمكّنا في النّهاية من دفع الفراش الثّاني بالقرب من رامي. ألصقا الفراشين أحدهما بالآخر ونام ثلاثتهم متقاربين يتوسّطهم أوان محاصراً رامي عند الحائط ومحاصراً بهوس رهان بخصوص السّقوط من الفراش.

خلال تلك اللّيلة راودها كابوس لم يمحَ يوماً من ذاكرتها. كانت مرتاعة لشخير احتضار جثّة ملقاة عند ناصية الطّريق. كانت لرجُل يُحتضر في ملابسه الرّثّة الدّامية. تذكر قبّعته الرّياضيّة المزرية التي أصبحت تغطي نصف رأسه المبقور، وقد كتب عليها «بنك الأمان». كانت قد داسته سيّارة، وتركته عند قارعة الطّريق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غارقاً في أعضائه المفككة وفي نصف مؤخرته العارية. كانت تصرخ في المازة غير المكترثين أن يتصلوا بسيارة إسعاف، إذ لم تتمكن يوماً من حفظ رقم قسم الإسعاف. ولم يكن أحد ليسمع نداءها. حوّلت بصرها في الطريق الطويلة. في كلّ مكان، كان هناك قتيل داسته سيارة وفرّت. كان شخير زفرات الموت الأخيرة يطغى على الطريق، ويعلو على صوت عجلات السيارات شيئاً فشيئاً، ولا أحد كان يكترث.. وصلها صوت بكاء رامي. انفتحت عينيها في الظلام. لامست أوان النائم إلى جانبها. أزاحت ذراعه وانغمست فيه. لا بدّ لوجود مكان ما في وسعه استيعابهم. عانقها أوان وأحكم حصار ذراعيه حولها مقبلاً جبينها.

عندما استيقظت في الصباح، كان أوان قد رحل إلى عمله. رامي كان في الصالون أمام شاشة الحاسوب قد فتح صفحة محرّك البحث متلاعباً بالدّيناصور الذي يظهر على صفحة الأنترنت كلّما انقطع البث عن الشبكة. كان قد حلّ الليل في اللعبة والدّيناصور لم يمت بعد. كانت أوّل مرّة تشهد خلالها هذه المرحلة المتقدّمة من اللعب. نظرت في إعجاب إلى طريقة لعبه. عندما ارتسمت «Game over» على الشاشة، طوت الحاسوب.

وجلست إلى جانبه، وقالت في حزم:

- يجب إلزاماً أن نتحدّث.

تظاهر بالبراءة وهو يشدّ في ارتباك أكمام قميصه الطويلة:

- بخصوص ماذا؟

أجابته في صبر:

- بخصوص ما فعلته بنفسك بالأمس.

طأطأ رأسه في توتّر. طال صمته. كان يتنفّس في ارتباك. عانقته في حرارة، ثمّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت:

- أعلم أن الفترة العصيبة قد طالت في الآونة الأخيرة. أعلم أن الإحباط قد نهشك. أعلم أنك تشعر بأن لا قيمة لك.. أعلم..

كانت تشعر بانتفاض صدره الملتصق بها وهي تعانقه. وحاولت أن تحتوي اهتزاز كتفيه. أرهفت السَمع لتفهم أن الأمر يثير خوفه. هو لا يتذكّر كيف دخل الحمّام.. يتيم الرّاية.. ليلة عصيبة قد كانت.. كان يشعر بالوحدة والإحباط. تشرّب كلّ العالم. وراح الكون يهدر بداخله من دون انقطاع. تعب كثيراً. كان يريد للهدير بداخله أن يكفّ، وأن يزيح ثقله من على صدره.. لا يعي كيف فعل ما فعل. قال إن الألم الذي يعتلي كتفه لا معنى له. لا طائل من ورائه. وحده العجز يترصّد به.. قال إنه على علم بكلّ ما يحدث مع راية ولا يتمكّن من إنقاذها.. ازدراؤه لفشله الذّريع.. ثمّ أنحى رأسه عنها وقال في شيء يشبه الضّحك المختنق:

- هل شعرت يوماً بنفسك في وضع يشبه «d» في «canard»؟ أنا «d comme canard»(74)!

انفجرت ضحكاً لما قاله، وعقّبت:

لا يسعني إلاّ أن أتذكّر مدى العذاب الذي طالني طفلة وأنا أكتب كلمة «canard» و«papillon» و«feuille»(75) عشرات المرّات حتّى أتمكّن من فهم المنطق الفرنسيّ.

ضحك بدوره وأضاف:

- «feuille»! ياإلهي! نلت عشرات الضّربات من عصا المعلّم بسببها! وحتّى اليوم ترتعش يدي كلّما وجدت نفسي مضطرّاً إلى كتابتها!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

ما إن أنهى أوان عمله حتى اتصل به، وطلب منه أن يلقاه في العاصمة. أخبرها أن أكثر ما كان يخشاه يتمثل في مواجهة أوان الذي صرخ في وجهه أن يلقاه وحيداً عندما اقترح عليه اصطحابها.

أسرَ إليه أن مشهد نقاط الدم وهي تتوالى في استرسال كان لذيذاً، وأنه عندما حدق إلى كتفه في المرآة بشكل جانبي بدا له الجرح الأول كالقوس. سرّ حينها ووازن بينه وبين روبن هود.. راح يحدق إلى القوس من زوايا مختلفة شاذًا من عضلة ذراعه التي بدت حينها أكثر ضخامة وقوة. ثم سرعان ما بصق في صورته.. وأعاد الكرة.. لا يتذكر كيف انتهى به الأمر ملقى على الأرضية..

وعلى الرغم من ذلك، كان سلَم الندوب على كتف رامي يزداد ارتفاعاً يوماً وراء يوم. وكانا قلقين عليه. كان دائماً في حاجة إلى أن يعكس ذاته على كلّ ما حوله. فهو الخنفساء الفارة من القدم التي ستدوسها. وهو السمكة التي ترتعش على حافة الميناء احتضاراً وأملاً في الهرب إلى الماء. وهو السلحفاة الهرمة القابعة في بركة الأركاد بالعاصمة.. فقبالة سفارة فرنسا بالعاصمة، على مقربة من نصب «ابن خلدون» ومن الأسلاك الشائكة التي تحوطه، وخلف مبنى فرع بنك البيات، كانت هناك ساحة مغطاة، رطبة وقديمة، غير بينة للعيان، تحتفي بمكتب طبيب عيون ومحلّ لبيع التذكارات، ومصوّر فوتوغرافي معروف، تُحوّر صور الأطفال في واجهته بالفوتوشوب، فتخفي عن الوجوه العيوب وتجعلها نورانية في شيء يذكّرنا بشخصيات «صاحب الخواتم»...

تتوسط الساحة بركة ماء يحوطها دربوز من سلاسل حديد. في البركة لك أن ترى بعض الحجارة المقدودة كديكور في شكل هرم ودرجات، وعدداً من السلاحف المائية المختلفة الحجوم والأعمار.

وأمام البركة، كان الثلاثة يحدقون إلى هدير الكون البطيء. زنبرك العالم كان يدور على مهل في مركز البركة، ويحاكي حركة الكائنات القابعة فيها ما عدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحدة. لم تكن السلحفاة العجوز لتتحرك. ورامي كان يريح ذقنه على يديه المتكئتين على الحافة الحديديّة للبركة، ويحدق إلى السلحفاة في كآبة. أوان كان يراقبه. كان كلّ منهم قد دعا سلحفاة باسمه. وكانت رهان تتسلّى برؤية سلحفاتها تتحرّك في نشاط، وتعبر حبّات الماء في استمتاع فتغنّي شارة «أسرار المحيط»(76).

كانا يعلمان أن حال رامي ستتدهور أيّما تدهور، إذا ما ظلّت سلحفاته غير مبارحة ركنها الرّطب، وهو الذي لم يعد يلحظ نفسه إلاّ في الكائنات البكماء. حاول كلّ من رهان وأوان ممازحته والسّخرية منها في خفّة ولكنّه كان حزيناً جدّاً. طلب منه أوان أن يشتري لهم بعض السّجائر. جرّ ظلّه في خطى ثقيلة. فتناول صديقه حجراً في تلك الأثناء ورماه على ظهر السّلحفاة العجوز فانتفضت في تثاقل، ونفضت عنها الغبار المعتمر لقوقعتها، وراحت تجرّ أذيالها محاكية حركة الزّنبرك. عندما عاد رامي انفجرت أساريره سعادة، وذكر في خفّة أن الأوان لم يفته، وأنّه ربّما كان هناك إمكان لم يتبيّنه بعد.

كان الحزن الذي ينتابه فجأة، والمرح الذي يعتريه على حين غفلة، مصدر غموض بالنّسبة إليهم. تجاوز الأمر راية وتجاوزهما عندما أمسى أرقه عويصاً لا ينقطع إلاّ بلفيفة زطلة(77). كلّ ما كان يجنيه من مال، يتجاوز أجرة سكنه ومأكله، كان يحترق في لفائفه.

في قيلولة يوم الأحد ذاك، كانت رهان تهدّدهما بعصا التّنظيف، عندما كانت بصدد مسح الأرضيّة، لئلّا يتجرّأ أحدهما ويطأ الأرضيّة الرّطبة قبل أن تجفّ. كانا في تلك الأثناء بانتظار أن تنتهي من التّنظيف، يتمرّنان على أغاني شارات الكرتون القديمة ليسلّيا من خلالها أطفال مستشفى «الصّالح عزيز»(78).

وما إن أنهت عمليّة التّنظيف حتّى انضمّت إليهما. تمدّدت على الأرض في غرفة الجلوس إلى جانبهما، وتناولت اللّفيفة المشتعلة منذ برهة، وراحت تسبح في الدّخان المتسابح منها نحو السّقف، لترسم لنفسها غارات بحريّة ونبالاً ومنجنيقاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأبراجاً محترقة... أغنية «سيتيزن كوب»(79) كانت تسبح في الفضاء منبثقة من الحاسوب المنسيّ، طالبة «الخلاص» فتضعها وجهاً لوجه مع مسدس «بوذا» الذي يشهره في وجهها.. ويتحوّل وجودها الرّصين الثّقيل إلى ابتسامة عريضة تتدحرج على مهل فوق درجات السّلّم الموسيقيّ وتعبث برموزه الموسيقيّة.

تلوّن المستديرة إلى ورديّ بطعم الفراولة.. وتشرب السّوداء عندما يراودها السّعال.. وتتأرجح على متن راية ذات سنّ مزدوجة فتفقد توازنها وتسقط بالقرب من معتز ورضوان ومنجد على متن سفينتهم، وهم بصدد مجابهة رياح الشّمال(80)؛ فتركض نحو الشّراع لتشدّ حبله المنفلت في الرّياح العاتية بين منزلقات العهد الذي قطعته معهم على التّغلّب على العدوّ الشّماليّ وسط العاصفة الهادرة، هاتفة:

- «نحن مغامرون! في وجه الخصوم! لن نتعب لن نيأس أبداً! على عهدنا ماضون!».

انفجر أوان ضحكاً، وأجابها مواصلاً الأغنية:

- «لن نتجمّد! لن نتردّد! لن نحبو كالطّفل! سوف يظلّ جبيننا عالياً مهما يطول العمر!».

فوقف رامي بصعوبة على ركبتيه متوسّطاً القاعة، ووضع يديه في شكل منظار أمام عينه، باحثاً في الأفق عن اليابسة مواصلاً:

- «هاي! هاي! يا بحّارة هاي!».

وفجأة كفّ عن البحث، وأزاح عن وجهه المنظار، وانفتح فمه في دهشة، وهو يشير إلى أرضيّة الرّدهة المستطيلة الرّابطة بين غرفة الجلوس والمطبخ. حدّقا إلى ما يحدّق فذهلا، ووسّع رئتيهما الذّهول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت آثار لحوافر ثلاثة صغيرة من تراب قد كست الأرضيّة البزاقة في شكل خطى، ذهبت من غرفة الجلوس إلى المطبخ جيئة وذهاباً، أو لعلّها خرجت من المطبخ في البداية نحو غرفة الجلوس ثمّ عادت إليه. جرّ الشّمل أنفسهم جرّاً في توجّس وقلوب خافقة نحو المطبخ متقفّين الأثر. همس لهما رامي ساخراً في الطّريق: «وقيلا panthère rose يحب يتكيّف(81)!»؛ فانحنى أوان ومسح بكفّه على الأرض، وأجابه جادّاً كاشفاً عن الوبر البنيّ الذي التصق بكفّه قائلاً: «panthère rose شعرو rose سي البهيم(82)!».

عندما وصلوا إلى المطبخ، ولجوه في حذر، حدّقوا إلى آثار الحوافر التي قادت بصرهم عند الحوض، فالشّبّاك الذي يعتليه.. كانت النّافذة مفتوحة. وعند حافتها الخشبيّة كان آخر أثر.. قارورة جافال جودي(83) الصّفراء البلاستيكيّة كانت مركونة عند الحوض.. اختنقت رهان، وهي تشير إليها: «لقد اختفى قرد الجودي!» حوّلوا بصرهم في ارتياب نحو القارورة. كان القرد قد اختفى من الصّورة مخلّفاً اسمه وحيداً يناديه في صوت أنثويّ قلق، يماثل صوت المرأة في إشهار نوع الجافال الذي نألفه «Judy».

تقدّم أوان من النّافذة، وأغلقها في إحكام؛ ثمّ مسح عن الأرضيّة آثارها، وحدج رامي ضاحكاً: «مالا كان غنّينا ماوكلي يا معلّم شكان بش يجرى!(84)»؛ فجاراه الآخر ضاحكاً: «والله راه باقيرا كلانا! صاحبي كلّي السّلعة موش هيّا!(85)». بينما أضافت رهان ساهمة: «باز قرد الجافال نظيف. موش هكّة؟(86)».

منذ تلك الحادثة، أصبح جودي مِشجباً تعلّق عليه كلّ الأخطاء. فإن ضاعت سجائر أحدهم كان لا بدّ وأنّ جودي هو الذي أخذها. وإن نسي أحدهم عدم إغلاق البيت بالمفتاح بعد خروجهم، كان لجودي نسخة من المفتاح. وإن استولى أحدهم على جعة الآخر خلال غيابه، كان قرد الجودي هو الفاعل. ذكر أوان أنّه سيطالبه بقسط في أجرة الكراء، إن ظلّت الحال على ما هي عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت رهان تكنس الوبر البنيّ المعتاد المتناثر في كلّ مكان، جمعته فوق ورق مقوّى لترميه في القمامة؛ فلمحت موسى مدمّاة وسط الكيس البلاستيكيّ. احتقنت غضباً، واتّصلت على الفور بأوان لتشي بصديقهما. قرّرا أن يلتحقا به خلال تلك اللّيلة، حيث كان يعمل في ملهى بنزل في قمرت(87). انكسر أمام الميكروفون عندما لمحهما، على الرّغم من أنّهما كانا قد حاولا أن يخفيا قدر الإمكان استياءهما. كانت سهرة هالووين، وكان يغنّي شيئاً يعدّد فيه أنواع الكحول المتوفّرة، الشيخة، أن سنفو، برشة شيخة بش نطيرو، ماما أفريكا...

أشار إليه أوان أن ينزل من الرّكح. تظاهر بأنّه لم يفهم إشارة صديقه. لم يتوانَ أوان من الصّعود إليه. وافتكّ منه الميكروفون في حنق. لحق الحرّاس به. ردعهم رامي عنه. وغادروا المكان معاً وسط الأقنعة المترنّحة بعد العديد من الاشتباكات.. كانت ليلة حزينة للغاية لا نهاية لغضب أوان، ولا نهاية لأسى رامي.. ولا نهاية لرماد السّجائر.

في اليوم التالي، أيقظه وأخبره أنّه قد عثر له على فرقة موسيقيّة فتيّة ترغب في أن ينضمّ إليها كعازف. لم يجرؤ على الرّفض بعد فعلته. قرّرا أن يتفاديا تركه وحيداً، فاصطحباه تلك اللّيلة إلى الحانة التي تعمل فيها الفرقة. وخلال تلك السّهرة، تبادر إلى مسمع رهان أنّهم يبحثون عن نادلة. كان الرّقم مغرياً بحقّ!

ضجّت الغرفة بصراخهما عندما عادا من السّهر. تتالت الشّتائم وسط الأواني المكسورة.

في اليوم التالي، خرجت مبكراً لتعثر لنفسها على غرفة حقيرة تستأجرها. ثمّ التقت رامي في الحانة حيث صارت تعمل. كان يصطحبها إلى بيتها كلّ ليلة. حاول كثيراً أن يردعها عن العمل هناك فأبت.

لم تر أوان منذ تلك اللّيلة، ولم تعد الأخبار التي تصلها عنه إلّا ما يخبرها به رامي. وكانت نزراً. وكانت محوّرة شأن رامي في القصّ. وكانت تلمح الأخرى مواراة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حديثه. أخبرته أنها تعلم بشأنها. أخبرها أن أوان يحبّها على الرّغم من كلّ ذلك. أخبرته بأنها تتجاوزه، ورجت ألاّ تتحوّل الأخرى إلى اسم وصورة، وتَشَكُّل في حياتها حتّى تجد الآخر. وكانوا آخرين كثراً بطبيعة الحال. وأمسى أوان مستحيلاً بطبيعة الحال. وظلّ رامي يحوّر القصص، ويزوّق خلال الشهرات التي تمتدّ في غرفتها الحقيرة حتّى الصّباح.

لم تتمكّن من تجاوزه بأيّ شكل من الأشكال. ولكنّه الخذلان.. لم تكن امرأة كاملة في نظره يوماً. أوان كان دائماً في حاجة إلى أخرى عندما تكون هي في حياته.

أخبرت رامي أن الأوان قد آن لتحظى بحياة كاملة خالية من الثالث. قالت إنها تعتبر نفسها الشّخصيّة الثّانويّة التي نكرهها جميعنا عندما تكون في مثلّث حبّ. وما كانت لترضى ذلك. قالت إنها وجدت في العمل كنادلة في حانة ذريعة للابتعاد عنه؛ ذلك أنها قرأت رسائله الهاتفيّة مع أخرى يحبّها. أنكر رامي وجود أخرى يحبّها أوان. رفضت الاستماع إليه. كان يحزّ في نفسها الوجود في مثلّث حبّ، فما بالك بشبه منحرف حبّ أمام وجود الكثيرات في حياته!

أخبرته أنها تكره الانصهار والثّلاثي والمرأة التي تمسي عليها أثناء وجوده؛ وأنها ترى نفسها في كلّ فتاة لم تلتقِ قدمها بمقاس حذاء سندريلا؛ وهي الخادمة فيكي الخنوعة في قصّة سالي؛ وأنّ أوان يشوّهها. فالعمل في الحانة لا يتجاوز الذّريعة. وهاهي تنقطع عنه وتكرّس وقتها لكتابة المقالات الجامعيّة كي تتيح لنفسها فرصة التّدريس في الجامعة... فالنّساء الزّاكضات بفستان أحمر حريريّ طويل الأذيال نوعان. تركض إحداهنّ ليتمّ اللّحاق بها، فتتعثّر كثيراً وقد تفقد فردة حذائها بين درجات سلّم.. وتركض أخرى هازّة من أهداب فستانها من دون رجعة لائذة بالفرار راغبة في الشّبق حتّى الاختناق. كانت تفضّل أن ترى نفسها في الفتاة الثّانية...

وكانت تركض على غير هداية...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة السّادسة

كانت تريد أن تضرب جهاز التّلفاز الماثل أمامها في المقهى بالفنجان. الغضب يشتدّ في كل أوصالها. تريد أن تذهب إلى الحانة. الوقت لا يزال مبكراً. لا مال لديها. «صاحب الظّلّ الطويل» مشغول بأمور كثيرة. لا تريد أن تلقى أحداً، وراية لا تزال في فرنسا. ابتسمت. راية كانت قد أخذت معها منذ زمن طويل كلّ ما وسعها من حمولة حظّ متعثّر ونحس متأصّل، وقرّرت الاستقرار في فرنسا بعد أن أنهت دراستها هناك. هاهي التّفجيرات الإرهابيّة ولا تزال. تقول راية إن الجو متوجّس في بلد الحريّات، وتضيف أن الجو في تونس قد وصل إلى حدّ مريع من القرف. حملات انتحار جماعيّة تغزو صفوفاً من المعطّلين عن العمل.. وكلّ من عبارة «الثّورة الثّقافيّة» و«الاستمناء الثّقافيّ» كذلك قد راجتا كثيراً أثناء تلك الأيّام. وانقسمت الموسيقى إلى شقّين أحدهما تجاريّ والآخر غير تجاريّ. وهناك من ينادي بتوحيد الأرضيّة بين اليسار وأزلام النّظام السّابق لمناهضة التّيارات الرّجعيّة وبين هذا وذاك.. بفففففففففف تظلّ سجائر الدّزيري(88) والويسكي التّونسي مصدر نقاشات متأجّجة، شأنها شأن شائعة الاقتصاد الوطنيّ!!

تطاير عدد من الذّباب الكبير الحجم قرب وجهها. تذكّرت حلماً مزعجاً راودها فجر ذلك اليوم. كانت محتجزة في مخبر. أحدهم كان يعبث بقدرتها على النّطق. سرقوا منها اسمه ولم تعد قادرة على التّلفّظ به. ردّدت في همس «أوان».. ولم تسمع إجابة. ابتسمت في وجع. كان صباحاً قاسياً بعض الشّيء. وفكّرت في محاولة ترويح عن النّفس، في كلّ المخذولين في العالم. ولم تشعر بتحسّن. وراحت معدتها تؤلمها من أثر القهوة الخالية من السّكّر. فكّرت في مصدر الذّباب الذي توافد عليها منذ حين. ولم تعثر على إجابة. ردّدت في اختناق أوان.. أوان.. فاستجابت لها الذّكرى، وانعكست على أزرق الأرق الذي راح يظلّل يومها..

إذن فهذا هو محلّ عملك الجديد!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاجأه صوتها الضاحك ومرآها، وهي متكئة على ساعة الصالون الفرنسية القديمة، واضعةً رجلاً أمام أخرى. كانت عينها اليسرى تكاد تنغلق لقطر ابتسامتها الواسعة، حملق فيها مبهوتاً، ولم ينزع عنه صرامته التي لم ينسَها، وسرّ لعودتها التي كان يتيقّنها، ويرتاب من نسبيّتها، ويخشى ريبتها. رمت بطرف وشاحها الجامع لكلّ ألوان الطيف على كتفها وعانقته بقوّة، ولم يبادلها العناق. تراجعت بعض الخطوات عنه، ودارت حول نفسها بقبعة البيريه السوداء، متفحصة المكان، وقالت في حماس مثقد:

- لقد أحببت هذا المحلّ منذ النظرة الأولى!!

وراحت تجوب أركان محلّ «الأنتيكا» مقلّبة الأدوات المتراكمة نافضة الغبار عن بعضها بكفّ يدها، وأخذت عدسة مكبّرة ورفعتها إلى عينيها، واقتربت منه ناظرة من خلالها إليه ضاحكة:

- متى ستهديني إيّاها؟

ضحك في سرّه من ضآلة حجم عينها المنعكس من العدسة المكبّرة، فاغتاظ منها ومنه، وانتزع الآلة منها ليعيدها إلى مكانها، ثمّ قال في نبرة غاضبة:

- ماذا تريدين؟

لم يبد عليها الغضب من ردّ فعله ولم يفارقها مرحها. لاذت بالصمت، وواجهته مبتسمة مجيلة بصرها المشغ في كلّ أركان وجهه وشعره ورأسه وكتفيه...

كانت كلّما ابتسمت اغتاظ من جديد. وكلّما اتّقد فيه ذاك الغضب الذي سعى منذ أشهر إلى التخلّص منه فالتخفيف من حدّته، كبته حتى انتهى به الأمر إلى ترويضه وتطويعه والتعايش معه على أمل التوصّل إلى الخلاص باستثماره.

كانت قد رحلت، وكان في قرارة نفسه يقطن صوت ما، لا ينفك يخبره أنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستعود لا محالة، فهي دائماً تعود.. دائماً ترحل ودائماً تعود، ولا يسعها أن تبقى، ولا يسعها أن تبقى راحلة. وكانت كلّ مرّة يتعرّف بفضلها إلى نهاية العالم من جديد. كان كلّ غياب هو الغياب الأوّل. وكان كلّ غياب ثانٍ هو مجموع الغياب الأوّل والغياب الثاني. وكان الغياب الثالث هو مجموع الغياب الأوّل والثاني والثالث... وكانت جرعة الفقد والوحدة والخيبة أكثر ثقلاً في كلّ مرّة.. وكان في كلّ مرّة يستأصلها منه ومن انتظاراته ومن آماله الزائفة، وكانت الرّحلة في كلّ مرّة تتّسم بمرارة جديدة لا يعرفها. وفي كلّ مرّة يطول غياب العودة حتّى يخال أن تلك المرّة هي نهاية العالم النّهائيّة.

ولا يموت الصّوت فيه، وينتظرها رغماً عن أنفه. ويقوم بكلّ مراسم الدّفن فيه، ويتبنّى طقوساً حياتيّة جديدة، ويطأ المستحيل ليفرّقهما، هو وهي خلال عودتها المستحيلة.. وتعود.

ها هي باسمة أمامه تكاد تقتله نظراً، متفحّصة في هوسها المرضيّ كلّ جزء ثانية من جسده عساها تعثر على أمر ما. سألها من جديد في غيظ:

- لماذا عدت؟

رآها تحاول التّخلّص من ابتسامتها السّعيدة، وتسعى لإكساب وجهها شيئاً من الجديّة، وهي تجيبه بصوتها الطّفوليّ:

- لقد اشتقت إليك.

ثارت فيه كلّ الإحباطات التي عرفها طوال حياته، كان كلّ فقد جديد يوقظ ما فقده فيما مضى، وكان كلّ رحيل جديد يعيد إحياء موتى سابقين ويقتلهم مرّة أخرى، ويكون هو من جديد الشّاهد الوحيد على كلّ من فارقوه من الأحياء.

وكانت هذه العودة وهذه الأعذار.. لا طائل من ورائها. وقد بنى بجهد كبير ورمق حياة أخير أسواراً عتيّة ضدّ أيّ عودة قد يودي رحيلها بالقليل الذي تبقّى فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من.. رمق على الأرجح. لم يكن قادراً على تحمَل خيبة أخرى، ولم يكن قادراً على ردعها. صرخ فيها بكل ما أوتي من قوة:

- لماذا عدتِ؟! ومتى ترحلين؟! هل تظنين أنني ما زلت سأعبأ بأعذارك الواهية؟! هل تظنين أنني سأتقفى أثرك مرة أخرى في تلك السراديب الندية المتشعّبة التي تقضين وقتك في التلاعب بين ثناياها؟! أتعتقدين أنني سأجاريك في رهاناتك داخل أزقّتك الليلية المشعّثة؟! ماذا تعتقدين؟! أن لديَ وقتاً حتى أضيعه معك من جديد؟! اشتقتِ إليَ؟! تقولين إنك اشتقتِ إليَ؟!! أقسم أن ذريعتك هذه لم تخطر لي على بال!! سأسألك للمرة الأخيرة: ما الذي أتى بك؟

كانت تستمع إلى بعض ممَا يقول، وكان البعض الآخر يغيب في التقاسيم الجميلة، ذاك الشريان الذي يعلو جبينه.. وتلك البحة التي تأتي لتتربع في صوته مسرعة كلما أنبأ صراخه بأنه سيحظر عليه السفر إلى بعض الطبقات الصوتية، إن هو لم يتوقف عن القيام بما هو بصدد فعله. دائماً كان ينتابها الضحك كلما غضب وأخذ في الصراخ، وكانت تلك هي المشقة الكبرى بالنسبة إليها. لم يكن لديها سبيل آخر، خلافاً لارتداء الوجه المشمئز الذي يستفزّه. فقد كان أقصى الوجوه التي يمكن أن ترتديها، لعلّه يتمكّن من القضاء على أمارات الافتتان البادية عليها.

Telegram:@mbooks90

وأمام صمتها البارد ووجهها المستفز، أخذ يصرخ من جديد:

- ما الذي تريدينه مني؟! لماذا أتيت؟! لماذا لا تجيبينني؟! هل منعك صاحبك مرة أخرى من التحدث إلي، أم أنه قد ابتلع لسانك في قبلة من قبلاتك الحارة له؟ هل يعلم بأمر مجيئك إليَ؟ أخبريني ما الذي تريدينه مني؟! هل أتيت حتى تذكّريني بوجودك؟! اطمئني عزيزتي فأنت لا تمحي من ذاكرتي، وكلا لم أتعرف إلى أخرى أنساك من خلالها. وأجل أنا ما زلت عالقاً حيث تركتني!! هل اطمأن قلبك وتشبعت نرجسيتك الآن؟! ها قد فسحت لك المجال.. الآن يمكنك المغادرة، فلم يعد لديك ما يبقيك عندي.

كان الأسى يتسلّل إليها بين هذا وذاك وكلّ ما كان يقول، ولم يعد ذاك الشريان

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضحكها.. ولم تكن تعلم بمدى الوجع الذي تركته فيه. وأخذ الوجه الذي لبسته يتقشر، وشعرت بالجبس الذي يشدّ عينيها يتفتّت من حولهما. وبدأت تجابه موجة بكاء أخذت تكتسحها، طأطأت رأسها لتشيح بوجهها عنه. كان من المخزي أن تبكي وكان من المحزن كلّ ما فعلته وقد صاغه في شكل كلمات. وكان من المضني الزحيل وكان البقاء مستحيلاً. أرادت أن تغادر وما أمكنها ذلك. ما كان باستطاعتها المغادرة ولا البقاء. كانت تريد أن تحزك ساكناً وما تَحزك. أخذت ترتئي نفسها في داخلها لتحفّز جسدها على الانصياع لها. رأت أن المشهد مخز. رأت أنها مخزية. انتابها الضَحك من جديد، كانت مخزية بشكل يثير الضَحك. أحقّاً ما كان يقول؟! لو كان صحيحاً، فهي أوضع امرأة شهدتها الأرض!! كانت وضيعة بشكل مضحك!! متى فعلت كلّ ما فعلت؟! وكيف أمكنها أن تخلّف خراباً مماثلاً في الرّجل الذي تحبّ؟! وأين كانت؟!

كانت ترتعش مطأطئة الرّأس مربّعة يديها في قوّة. وعمّ الصّمت المكان. تنافخ في عنف مزّات ومزّات ومزّات.. حاولت أن ترتّب موجة العواطف التي اعترتها، ولم تفلح، قبعت في مكانها مرتعشة محتضنة ذاتها. كان ينظر إليها في عجز. وسأل مجدّداً في همس متعب: «لماذا؟». وكأنما الأمر يتجاوزهما من دون أن يرجو إجابة. ظلّت كذلك. راح يتحرّك في المكان، فتح قارورة ماء وشرب بعضاً منها، تناول علبة لفائفه، وقف أمام المحلّ يتحادث رفقة الباعة الآخرين، سمعته يناقش زبوناً عن سعر أحد الشّمعدانات الفضيّة وينجح في جعله يقتنيها بسعر يقارب الذي وضعه منذ بداية المساومة. لم تكن ترغب في مبارحة المكان، كانت ترجو أن تتحوّل إلى إحدى قطع الدّيكور الأنتيكا التي تملأ المحلّ. راحت تتساءل إن أتيحت لها فرصة لتتحوّل إلى إحدى القطع فأيّ واحدة منها كانت ستختار. ذهب في اعتقادها أنها تفضّل أن تكون آلة تشغيل أسطوانات قديمة على الرّغم من أن التّحوّل إلى نبال هنود حمر جميلة ومعطّلة عن العمل، يليق بها أكثر كثيراً.

سمعته يقول:

- أتريدين شيئاً من الماء؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تكن تريد أن تغادر حالة الجمود التي عليها، كانت كلّ أعضائها وأفكارها وعواطفها وانفعالاتها مخدّرة بشكل مريح ومسالم يعفيها من كلّ ما له علاقة بالعالم الخارجيّ، ويكفيها عناء تمثّل الوضعيّة التي تجد نفسها فيها؛ وفكّ طلاسمها، والبحث عن أيّ الانفعالات الملائمة التي عليها أن تتحلّى بها لتناسبها.

اقترب منها في خطى متثاقلة، وضع كرسيّاً على مقربة منها وطلب إليها الجلوس. ثابرت، وبفضل الرغبة الكامنة فيها، والتي لا تريد أن يلحظها، كابرت للجلوس على الكرسيّ. شعرت بأنّ بقاءها واقفة في ذاك الحيّز المكانيّ هو السبب في إزعاجه لسكينتها. وكان الانتقال للجلوس على الكرسيّ جهداً مناسباً مقابل تركه لها في حالها. جلست على الكرسيّ مطأطئة الرأس، ضامّة يديها إلى صدرها. خرج مجدّداً، سمعته يحاول إشعال سيجارة، ولكنّ القدّاحة أبت عكس ذلك، راح يشتم القدّاحة غاضباً ورمى بها أمام المتجر. اعترتها نوبة ارتعاش جديدة سرعان ما لحظّها. اقترب منها في بطء، كانت ترتجف أكثر فأكثر كلّما اقترب منها. كانت تخشى أن يصبّ جام غضبه من جديد عليها، وكانت تتجذّر بالمتجر أكثر فأكثر مع كلّ نوبة خوف تنتابها. قرفص قبالتها، ارتعدت فرائصها، وضع يده على كتفها، كادت تنهار، رفع يده فانكمشت على نفسها في خوف، أخذ يربّت عليها كمن يتعلّم التربيت، فابتسمت وقالت في مرح مرير:

- هل لديك سيجارة؟

فابتسم بدوره وقال:

- لقد تعطّلت القدّاحة، سأقفل المحلّ على كلّ حال، لنغادر.

غادرت كرسيّها في خفّة، وراحت تساعده في إدخال الأغراض المعروضة خارج المحلّ. انتظرت إلى جانبه، وهي تشعر بأنّ كلّ عيون باعة سوق العصر منصبّة عليها. أنزل السّتار الحديديّ في صخب وأدار المفتاح فيه، ثمّ لوّح لجاره ملقياً عليه تحيّة المساء. تأبّطت ذراعه، ونزلا من الزّقاق الذي يشدّ «سوق العصر»(89)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى «سوق المز»(90) بين عبارات الاستفسار من قبيل «على خير»(91) و«أنستك بيها»(92).

عبرا «باب الجديد» ثمّ «باب دزيرة»، وصولاً إلى شارع «الحبيب بورقيبة». كانت تتأبّط ذراعه، وكان قد وضع يديه في جيبي معطفه القصير. لم يتبادلا الحديث. لم ينبسا بكلمة. كانت تحاول أن تجاري إيقاع خطواته الواسعة، وتفطن إلى جهدها فوسّع من خطواته. وصلا مطعم وحانة «الكوخ الصّغير»، وهما في الواقع عبارة عن قاعتين متوسّطتي المساحة قُدّتا من ديكور خشبي، ومجموعة صغيرة من الرّوّاد الذين ينتقيهم مدير المحلّ بحسب رغبته في ممارسة ميكروفيزيائيات السّلطة، وبحسب حدسه الخاصّ، وبحسب خبرته، وبحسب منطق للأمور لا يفهمه غيره.

اتّخذا طاولة في ركن منزوٍ، وخلع كل منهما المعطف والقبّعة. جعلها تجلس قبالة الجدار وجلس هو متّكئاً عليه. وضع مرفق ذراعه على الطّاولة، وغاصت يده في شعره، وحدّق إليها برهة من الزّمن، ثمّ جمع راحتي يده على الطّاولة، وقال ضاحكاً:

- إذن؟!

فقلّدت حركته، ومال جذعها على الطّاولة، وقالت بدورها:

- إذن؟!

- كيف حال العمل؟

فأجابته في خفّة:

- لقد اكتشفت أن لا علاقة لموهبتي في التّحليل النّفسي بعملي كنادلة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحانة، وأنا التي كنت أعتقد أن حرمان الكون من موهبة مماثلة إجحاف في حقّ البشريّة!!

لم يتمكّن من الضّحك أمام مزاحها الثّقيل. سارع النّادل إلى إحضار قارورتي سلتيا، فاقترض منه «أوان» قدّاحته، وأشعل سيجارة، ثمّ سألها نافخاً دخانها أمامه، محتجباً خلف السّحابة التي صاغها:

- إلى أن؟

فسألته بدورها محاولة ترتيب تعابير وجهها السّاهمة في احتراق سيجارته الشّابّة:

- إلى أن ماذا؟

- أخبار علاقتك ومبدأ العطالة. ما الذي حدث حتّى انقطعت عن الانجراف إليّ وعن زيارتي؟

- سأطلعك على السّبب القادح مرّة أخرى.

تناولت القارورة الخضراء ونزعت عنها قبّعتها الذّهبيّة ثمّ شربت جرعة منها، وقالت:

- وأنت؟ حدّثني ماذا فعلت طوال الفترة الماضية؟

- لا شيء يستحقّ الذّكر. تعثّرت بين مهن متعدّدة، واستقرّت بي الحال في «سوق العصر».

ضحكت وقالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- من كان يتخيل ذلك!! أوان في سوق العصر!!

جاراها في الضحك، وعقّب:

- مشهد رمزيّ للغاية! ولو كانت حياتي رواية لافتتحت بجملة مماثلة!! أوان في سوق العصر!!

كان بصدد طلب «جولة» بيرة أخرى عندما دخل صديق له. صافحاه، ودعاه أوان للانضمام إليهما. جلس الفتى وأخذت تشخصه، كانت تريد أن ترى كلّ ما فاتها من حياته أثناء غيابها، وكان الآخر دليلاً قاطعاً أن أوان قد كان جزءاً من حياة آخرين تحت السماء نفسها التي كانت تحتها، وكان الآخرون يرونه ويتعايشون معه حتى أمسى هو الجزء الأجمل منهم. الجزء الذي يبعث فيهم التألّق الذي لا يعرفون سببه.

راحا يتحدّثان عن أمور كثيرة. أخبره الفتى أنه ينوي تكوين فرقة موسيقيّة، وأنه يقترح عليه الانضمام إليهم. اشترط أوان أن يعمل معهم رامي. اتّخذ الحوار شيئاً من الاحتدام بسبب المنحى الغنائيّ التجاريّ الذي عرف به رامي مؤخّراً. دافع عنه أوان بكلّ ما أوتي من قوّة. قال إن لا أحد يضاهي صديقه، وإن لا مجال للمزايدات، إذ لا يخفى أمر من الأمور في العاصمة.

راحت رهان تنقش وجوهاً ضاحكة على العنق الذّهبيّ لقارورتها، تفظن أوان لانزوائها عنهما؛ فأخبر الفتى أن يؤجّلا الحديث في هذا الخصوص إلى حين لاحق.

أخذ رأسها يثقل، وهي بصدد تجرّع القارورة الخامسة. كانت تعلم أن طاقتها في الشرب لا تتجاوز خمس قارورات زجاجيّة إذا ما شربت في الحانة. لم تكن تريد أن يفوق ما تشربه طاقتها، ولم تكن تريد أن تخرج عن وعيها، ولا أن تفسد سهرتهما. راحت ترتشفها في بطء، وتدخّن السّجائر الواحدة تلو الأخرى لتملأ فراغ معدتها.

بدا وكأنه يعيد طرح سؤال ما عليها، حين سمعته يقول: «رهان، هل أنت بخير؟». شدّت على يده في حرارة، واكتفت بأن تحرّك رأسها إيجاباً مبتسمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساعدها على جمع أغراضها عن الطاولة، وعلى ارتداء معطفها، وغادرا معاً.

كانت تتأبط ذراعه من جديد في تعلّق. وكانت خطواته متسارعة، ولم تكن لتفهم لماذا كان دائماً يحث الخطى عندما يكونان معاً. لم يتمكن وجهها من التخلّص من ابتسامتها الثابتة، ولا من التحديق إليه بين الفينة والأخرى. وكان عليها أن تحاذر في كل مرّة من أن تغرق قدمها في بركة وحل، وكان بعض الرّذاذ يسقط، ويصعد إلى السّماء متلاعباً. وكانت بعض الرّياح الحادّة تلاعب الثملة في دماء وجهها. وكانت «ريحة التراب كي تصب الشتاء»(93). وكان الطريق قصيراً قصيراً دائماً لا يكاد ينتهي. كتف معطفه الذي كان يعلوها قليلاً كان نديّاً.. رائحة معطفه..وخطواته حثيثة مهما راوغت لتعطيلها.. وفكّه السّفليّ مشدود في حزم.. وعيناه متطلّعتان إلى الطّريق.. أمامه. انحدرا في أزقّة كثيرة عند شارع باريس(94)، حتى وصلا «لافايات»(95)، بالقرب من فندق «الدّيبلومات». كانت شقتها ذات الغرفة الواحدة تقع في عمارة ما هناك.

كانت روائح عديدة، تغمر السقيفة، تحتضنها احتفاء بعودتها إلى البيت، خليط من أعشاب خضراء تتطفّل من شقوق الأرضيّة، براز قطط متشرّدة، بعض الأطعمة المنسابة من مطابخ طازجة لامرأة عاملة تحضّر منذ اللّيل غداء يوم غد لأطفالها الذين يعودون بمفردهم من المدرسة... صعدت الدّرج قبله محاذرة الدّرجات العجوز المقصّفة الأطراف، مستعينة بالدّربوز الحديديّ الرّخو. لم يكن يعرف الطّابق الذي تقع فيه شقّتها. وكانت تشعر بيديه على ظهرها، وكأنه يستعدّ لتقهقر مفاجئ قد يصدر عنها.

أدارت مفاتيحها الكثيرة في أرتجة الباب الخشبيّ الثلاثة. ثمّ ضغطت زرّ الإنارة، وولجا الغرفة الوحيدة.

كانت قد نسيت نافذة الغرفة مفتوحة. وكانت أوراقها تتطاير في كل مكان، وتراقص السّتائر الهائمة. هرعت إلى النّافذة تغلقها، بينما تقدّم في آليّة من الحائط الأملس الخالي من النّوافذ، المخفيّ خلف السّتائر الشّفافة المغوية. تقلّصت كلّ

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التفاصيل فيهما وهو يشيح بالقماش عن الحائط، ويفك طلاسم شجرة الكلمات المتشابكة الموشومة عليه. كانت تسمّيها شجرة الإمكانات السرديّة، ومن خلالها كانت ترسم في كلّ مرّة خطّة القطع مع أوان. كان الجذع يمثّل لقاءها به، وكلّ غصن متفرّع عنه يمثّل إمكاناً سردياً مارسته بغاية التجاوز. وكلّ الفروع كانت تمثّل العودة السقيمة إليه. كانت أجمة عملاقة ظليلة كثيفة الأوراق، كلّ ورقة تحمل أسماء من عرفتهم بهدف الانسلاخ. سألها في اندهاش:

- ماذا فعلت بنا؟

كان الأوان قد فاتها:

- لا شيء مطلقاً، كلّ ما في الأمر أنّني كنت أوضّب نفسي.. قليلاً.

- ألغيتني؟

- لم أفلح.

- أردتِ ذلك.

- جاهدة. لم أفلح.

- ضحك ساخراً، وحزّك رأسه في كلّ الاتّجاهات مستهزئاً:

- أنانيّة.

- وغد.

- تلغينني؟!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت أمقت ما جرى معي في حياتي المقيتة.

ورنَ هاتفه، وقطع موجات التحدي، قال:

- عليَ أن أرحل.

- أجل. فأنت جدير بذلك.

تفجّر كلّ الامتعاض الذي عصف به:

- ماذا تريدين منّي؟

أجابته باسمة:

- لا شيء يذكر. صدّقني. شكراً على كلّ الأمور التي لم تقم بها. ارحل. لا طائل من أيّ أمر.

ولاّها ظهره وأغلق الباب خلفه.

عادت لإحكام إغلاق نافذتها؛ فانسدلت السّتائر على الحائط العابث، وبدا وكأنّ الأمر لم يكن. أخذت مفاتيح بيتها وخرجت مهرولة. تراكضت في الدّرج المظلم وحاولت القفز بين الدّرجات. خرجت من السّقيفة ووجدته يحثّ الخطى ليغادر الزّقاق نحو الشّارع الرّئيسي، زمجرت باسمه صارخة:

- أوان!!

ركضت نحوه وركلته برجلها على بطنه في عشوائيّة وعنف، انحنى على موطن الألم، تمازج الألم بالدّهشة على وجهه. حدّق إليها ملتبساً، فوجدها تشخص إليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تحدَ:

- هل جننت؟

- يالك من أحمق!! ألا تفهم أنَني أحبك وأنه كان عليَ تخطَي كلَ الإمكانات حتى أكون حيث أنت؟!! غبيَ ولا طائل يرجى منك!!

فقال متعثراً:

- أعيدي الكرَة مرَة أخرى وسأقضي عليك!!

تقدَمت نحوه في خطى واسعة، ودفعته بيدها على صدره في استفزاز:

- هيا!!

كشَر في وجهها وتقهقر بعض الخطى، ثمَ نفض ثيابه وقال محاولاً تهدئة نفسه:

- عودي إلى بيتك.

- وأين ستذهب؟

- أمر لا يعنيك.

وولاَها ظهره مبتعداً عنها، أخذت تتقفَى خطاه. أخذت خطواته الواثبة تتقلَص شيئاً فشيئاً. وعند مفترق الطَرق الرَابط بين الباساج(96) وشارع «محمَد الخامس»(97)، كانا جنباً إلى جنب. فجأة، دوَى صوت انفجار قوَي في الفضاء، واحتلته كومة ملتهبة انبثقت من السَماء، وأخذت تخيَم على الأرجاء؛ سرعان ما تلتها صفَارات إنذار طارئة وحالة من الفزع في الشَارع(98). دفنت يديها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجيبي سترته وحوط كتفيها بذراعه. وتسارعت خطواتهما في صمت بين المارة المتراكضين في جنون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطّة السّابعة

كانت كلما ولجها «صاحب الظّلّ الطويل» تنفجر ضحكاً.. كانت تعزو الأمر إلى إحساسها بالذنب. ولكنّ أوان كان قد رحل، وانقطع وكفّ. وهو لابدّ أنه يقيم العلاقات كما يحلو له ذلك. كانت تفكّر في الدّرس الذي عليها تقديمه يوم غد. الأغنية تعاودها. أوان. على هذه الأغنية أن تُعدَم رمياً بالرّصاص. صاحب الظّلّ الطويل يكفّ. لا يتكلّم. يعانقها. يدعوها إلى الخلود للنوم بين ذراعيه. ولكنّها تختنق عندما تحاصرها ذراعاه. لم تكن تفهم، وهي السّمكة، أيّ درجة من الأزرق قد رمى بها بين هذه الشطآن العاقرة. لم تكن لتتمكّن من ملامسة الإمكان السّرديّ الذي بصدد ابتلاعها. كانت تخنق ضحكاتها. أيّ إمكان؟!! ولماذا هي الآن هنا في هذه الغرفة التي لا تجيد الظّلام؟! أيّ أزرق؟! لقد سبق أن حذّرته.. أنذرته.. قصّت عليه قصّة اللاأمل مراراً وتكراراً، فلماذا لا يزال يقبع هنا؟! ولماذا تعود إلى هذا البيت كلّ يوم؟! تلك أسرار لا يعرفها غيرها.. هي التي نسيت.. أخبرته أن يعود أدراجه من حيث أتى على خدّها إن شاء. ولعلّه شاء ولعلّه عبر بعضه، ولكنّ خدّها لا قرار له. وأخذت ترجو نسيم الرّيح أن يحوّل ظلّه الطويل حتى كلّ درجات الألوان الترابيّة.. ولكنه أبى. فقد نثر أحدهم الملح فيها قبل خلقها، وبعد خلق من كان.

«صاحب الظّلّ الطويل» قد غفا. تملّصت من ذراعيه بصعوبة. وغادرت الغرفة. ضغطت زرّ الإنارة في الصّالون.. اللّعنة على كلّ هذا البياض!! اللّعنة على هذا المكان الفاقد لكلّ طعم، والمرتّب بشكل مرضيّ يثير الاستفزاز!! مطبخ عصريّ فيه آخر صيحة من الآلات الكهرومنزليّة خال من كلّ طعام. دخلت الحمّام المعقّم وتناثرت حبّات الماء على وجهها. غادرته مسرعة. اتّجهت نحو باب الخروج من هذا الكابوس. ومن على المشجب تناولت سترتها ذات المربّعات المهترئة وقبّعتها الرّياضيّة، وغادرت.

تاكسي نحو السنترفيل(99). الحانة المسحورة. الحارسان الضخما الجثّة. الباب المرتدّ. ولم يبتسم ابتسامته الجانبيّة لمرآها وهو عند الكونتوار إذ لم يكن هناك.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت تترقّب مجيئه. كانت واثقة بذلك. لم تحوّل بصرها عن الباب إلاّ عندما همّ الحارسان بإغلاقه عند منتصف اللّيل كدلالة على بلوغ الحانة طاقة استيعابها القصوى.

دائماً تأخذها أزمنتها إلى محرار الانتظار - الخيبة. ودائماً كان يومها يمتدّ من السّاعة الواحدة انتظاراً حتّى السّاعة الثّانية عشرة خيبة. وكانت الثّيك تاك المصاحبة لساعتها الدّاخليّة تتماهى ونبض الدّماء في داخلها، حتّى تبلغ الدّقات الاثنتي عشرة، فتوقّع في كلّ الأركان الصّغيرة وغير المرئيّة في كونها الدّاخليّ، ويتهاوى صرح كلّ رهان فيها الواحد تلو الآخر كمروحة ورقيّة من أوراق لعب رماها صاحبها الذي خسر الرّهان. ويجري جمع كلّ رهان فيها، ويقع مزج كلّ أوراق اللّعب من جديد. وتجد نفسها مجمّعة مرّة أخرى في احتراق لفيفة، مخمّنة، حاملة وجوهاً جديدة، جميعها تراوح بين الانتظار والخيبة، وتسأل كلّ ورقة الأخرى، وكان الأمر ذاته في كلّ مرّة. وكانت الآمال مختلفة في كلّ مرّة. وكانت الخيبة أكثر مرارة في كلّ مرّة. وكان لها شرف محاولاتها الكثيرة في الخروج عن البنية الدّائريّة للزّمن، وكان لخروجها عنه أشكال مختلفة، يعيشان في سعادة وهناء في كلّ مرّة، وفي كلّ إمكانيّة مختلفة، حتّى تداهمها لحظة الدّقّات الاثنتي عشرة فيتهاوى صرح الأخيلة، وتضحي من جديد نبضاً حادًا يشدّها إلى الحياة في فظاعة. وكان لها شرف نسيانه وتجاوزه في الكثير من المرّات، ولكن، وإن كانت تتجاوزه، فهي لم تتمكّن يوماً من نسيان أحزانه. لقد كانت عضواً من أعضائها الحياتيّة لا يسعها استئصالها.

كان وجودها، وهو ثقيل ثقيل.. ولم تكن تعرف كيف ستغادر كرسيّها وتقتني سيّارة أجرة، فقد كانت المسافة قصيرة للغاية بين الدّموع والاحتراق.. كخيبة أكتوبر.

وكانت سيّارة الأجرة من حيث لا تدري. السّائق يسألها عن الوجهة. البيت الأبيض. يضحك. تعرف وجهتها في غرابة تعرف. تعود أدراجها. الهواء يمرّ منها ويعودها. البرد يكتسحها، وتنتفض فرائصها من وقعه. تفتح خزانة الحائط في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصالون تتناول منها كلَ أغطيتها الصوفيَة. من البديهيَ أنها تقطن في هذا المكان. قارورة التيبارين(100) إلى جانبها وثلاث سجائر. تتمدّد على أريكة الصالون وتلتحف بكلَ ما تجده أمامها. تبحث عن الذكرى فيها لعلّها تعثر فيها على بعض من الدفء.

ستائر شفافة مزرقّة.. ونسمات ربيعيَة تداعب رائحة التبغ في الغرفة.. كانت تتململ بين ذراعيه مغمغمة.. برنامج بالرّاديو المنبعث من هاتفه يطرح موضوع المصالحة ويدافع عنها..

فتحت بصرها في تكاسل، ورأته يحدق إليها مشدوهاً، وكأنّ في غمغمتها نوتات لا يعرفها. ضحكت، وقالت إنها لم تره في حلمها ليلة أمس. اتّهمها بالكذب، وقال إنّه كان قد شاركها الحلم. قال إنّه لا يفارق أحلامها حتّى يعرف إن كان معها عدد كاف من النّجوم. قالت إن الأمر غير صحيح، فقد راودها حلم ذات مرّة لم يكن فيه. قال إنّه يذكر ذاك الحلم، وقد تسلّل إليها خلاله من لوحة زيتيّة كانت تزيّن المكان. تقول إنّه مراوغ. يذكر أنها كاذبة. «المصالحة(101) طوق نجاة أخير على التونسيَ أن يستوعبه، وهو الذي عرفت عنه روح التّسامح المتوسّطيّة»... ينغرس فيها وتنغمس فيه في بدائيّة.. «التّونسي للتونسي رحمة».. تتململ من جديد.

يعزو سرّ دوران الأرض إلى تململها. يرنّ هاتفه مقاطعاً خطاب شيم التّونسي وعلاقته بروح التّسامح المغروسة في هويّته الإسلاميّة..

تذكر أنها قد اكتشفت سرّ هدير الكون، وأنها ليست من الأمر في شيء، بل هي حركة السّلحفاة في بركة الأركاد السّريّة المتروكة في وسط البلاد. يقول إنها رائحة القرفة.. تعزو الأمر إلى الثيبارين.. يعزو أمر الثيبارين إليها.. يذوب وجودها بين ثنايا رقبته.. قبلات مالحة موقّعة على صوت الرّنين.. تخشى عليه من «جون باتيست غرونوي». يقول إنها السّبب في اندلاع طاعون الرّقص في «ستراسبورغ».. يراقصها في نهم..

النسمات الربيعية تتلاعب بالستائر.. وهاتفه يرنّ.. يشيح عن وجهه إحدى خصلاتها التي علقت بلحيته.. تدفن وجهها مجدّداً في صدره فارّة من الزنين. مخفية عنه دموعها. يوقع منكبه الهاتف وتتفكّك أجهزته في لامبالاة منه. رهان تتململ.. تختنق وهي تقول الويل للأزرق إن ساورته نفسه بالتسلّل إليه.. تقول إنها ستتسلّق كلّ درجات السماء من الأزرق السماويّ فالأزرق الداكن فالأزرق الليليّ حتّى تثأر له. يقول إنها مجنونة وبذيئة.. تتوعّد الأزرق من جديد في صوت حلقيّ، إن هو أبعدها عنه.. وتتململ..

قال إنّه يخشاها، وإنّه يحبّها حتّى الحزن.. يحبّها ويندم لأنّه لم يعاقر طفولتها.. ولأنّه قد يغفل فلا يراها.. ولأنّ الكون يبدو ضيّقًا أمامها.. من المحزن أن يكتشف مدى عدميّة الأوضاع ومدى عدم قدرته على الفعل.. يقول إنه كلّما أخبرها أنّه يحبّها يصل متأخّراً.. وإنّه لا ينفك يصل متأخّراً بين العبارة والأخرى عندما يتعلّق الأمر بها..

يداهمها الأزرق من جديد وينتزعها البرد من الذّكرى.. كانت على أريكة الصالون ترتعش صخباً.. بدأ خدر التّيبارين يتسلّل إليها. وأخذت جدران الغرفة تتقدّم نحوها شيئاً فشيئاً مترنّحة.. بدا لها أن المصباح الكهربائيّ يدور حول نفسه ضامّاً يديه إلى صدره في جلاء رداء أبيض طويل وعمامة حمراء. ابتسمت للمصباح، وقد استفزّها النّسق البطيء الذي يدور حوله فغنّت متعثّرة ملوّحة له بقارورتها في حماس مستنهضة هممه: «أبرقي أرعدي أبطالاً وعدوك أنبل وعدا جاؤوك بصوت الحقّ الهادر كهزيم الرّعدا»(102). استجاب المصباح لها، وراح يدور في سرعة خارقة شيئاً فشيئاً، حتّى انفجر في شيء يشبه الألعاب النّاريّة، وتساقط نجوماً فوق رأسها! وصدرت جلبة انكسار أحد الأواني من المطبخ. أحدهم قد أوقع إناء بلّوريّاً.. وفي ضوء النّجوم الملوّنة المتساقطة عليها، رأت آثار حوافر لأرجل خفيّة تشقّ طريقها من المطبخ حتّى أريكتها. تقبع عند رأسها زمناً. ابتسمت للشّيء الخفيّ، وردّدت في حنين متعب بتوقيع صوتها الذي ألفناه من خلال إشهار الجافال: «Judy».. توالى التّربيت الخفيّ على كتفها، مهدّئاً بصور مرصوصة تكاد تدمّر ذاكرتها الدّفينة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانا عند الكونتوار في حانة الدَوبلاكس. الازدحام كان فظيعاً في هذا المكان المكتظ، ولم يكونا قادرين على الرَقص كما كانا يحبان، بسبب عدد الشَاربين الذين كانوا يتمايلون عليهما ويتساقطون تحت أثر الطبول الإفريقية للسَطنبالي(103) التونسي. كانت رهان تقسم أنها قادرة على شرب البحر المتوسط، وأنهما يوم غد سيتمكّنان من السَفر إلى القارَة الأوروبية بزاً بفضلها، عندما وصلهما هتاف رامي الصَارخ:

- أنت هنا سي الطحان؟! قلبت عليكم الدنيا!! ياخي نرمال مسكّر تلفونك؟!! (104)

- شفما؟!!(105)

- أمَك مالصَباح تكلّم فيك(106).

- لاباس؟! (107)

- منعرفش، كلّمها(108).

تناول أوان هاتف رهان في الآن وابتعد عنهما. حدَقت إلى رامي بإصرار. أخبرها بالجلل. أخو أوان الأصغر يحتضر بعد محاولة انتحاره. عاد أوان، وتناول سترته في هدوء. طلب من صديقه أن يرافقها إلى البيت بدلاً منه، وخرج مسرعاً. لحقا به وفقداه في الزَحام. كان يجب أن تلحق به ولكنّها فقدته. كان الهواء يضخ في رأسها، ولم تعثر عليه. سألها صديقه أن تنتظره وألاَ تركض. تجاهلته. الهواء في الخارج كان نقياً حدَ الإجهاد. والعالم يترنّح في رأسها. وهي تبحث عنه في مفترق الطَرق. كان يجب أن تعثر عليه. راكضة بين هنا وهناك. ووجدته.. كان طريح الأرض. أحدهم كان فوق صدره يلطم وجهه في عنف وأوان كان مستسلماً له.. تجمّدت في مكانها برهة من الزَمن. أوان لا يقاوم. يسلّم أمره. أخذ الآخر رأس أوان بين يديه وراح يلطمه على أرض الطَريق. مزة.. ومزة.. ومزة.. رمت حقيبتها عرض يدها وراحت تركض باتّجاهه.. كفَ العالم عن الترنّح.. واندلع الحريق فيها..ولم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعد ترى أيّ مرّة. احتفت اللّحظة بالآن وبالذّاكرة حتّى الأبد. وانعتقت من التّاريخ ومن ذهنها ومن ذاكرتها. لم تكن تدري.. ماذا حدث.. لم تتذكّر.. ولم تر.. كلّ ما كانت قادرة على تبيّنه بعد لحظات، هو شعورها بصعوبة في التّنفّس. كان شيء ما لزج يفيض من فمها له طعم مالح.. طعم يشبه المذاق الذي يتركه الحديد في الفم إن حدث وتلاعب أحدهم بغطاء البيرة برهة من الزّمن في فمه لافتقاره إلى سيجارة أثناء سهرة امتدّت حتّى أغلق متجر الفواكه المجفّفة أبوابه.

رفعت يدها إلى فمها في شيء غريزيّ.. وبحثت عن أوان بعينيها.. ورأت الكثير من الأمور بشكل أفقيّ متراطم.. تلمّست الشّيء الطّريّ الذي أخرجته من فمها.. رأت أوان يترنّح متملّصاً من ذراعي صديقه، ويصرخ في وجهها بكلام لم تفهمه.. سمعت صرخة أحدهم تخترق السّماء في نَفَس عظيم لا انقطاع فيه، فرأته جاثياً على ركبتين مثنيّتين ممسكاً بالجرح الذي خلّفته له عندما اقتلعت أذنه والدّماء تنضح من بين أصابعه.

سمعت صوت صفير السّماء الدّاكن يتشقّق.. والصّرخة لم تنته بعد.. أصبحت حاسّة السّمع حادّة لا تطاق.. والعالم صرخة لا تنتهي لا يسعها أن تتبيّن بسببها أيّ أمر من الأمور.. يا للفوضى التي تعمّ المكان؟!! ماذا حدث؟!! شعرت بيدي أوان المتساقط ورأته يقول شيئاً يشبه «اللّعنة عليك ماذا فعلت؟!!».

شعرت بيده، وهي تجذبها في عنف وتدفع بها أمامه. وراحا يركضان على غير هداية؛ فقد كانت السّماء على وشك الانهيار.

لم يكن معهم غير حقيبة ظهر فيها بعض الأغراض العشوائيّة التي جمعوها على عجل، قبل أن تقلّهم سيّارة أجرة فجر ذلك اليوم. كان الصّمت يخيّم عليهم هم الثّلاثة. أوان يتوسّط رهان ورامي في الصّفّ الأخير من المقاعد. ارتياب. يجب لزوماً أن يظلّ الطّفل على قيد الحياة.

الوحل لا قرار له.. طويلة هي الطّريق.. الوحل عميق.. طين.. حجارة.. رائحة العقم تلتصق بالشّعر بالبدن بالحركات.. أكواخ حجريّة.. وأهالٍ ملتحفون ووجوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طينيّة متصدّعة ومتشقّقة كلّها متشابهة.. والزيف أرياف.. أحدها كان ريف الانتحار.. وفيه كان الأوان قد فات. كانت أمّ الطّفل تنتحب عندما وصلوا. أوان كان متجمّداً. ورهان كانت تلامس الأذن التي اقتلعتها كلّما وضعت يديها بجيبي بنطلونها، وتسألها رأيها فيما يجري.. الأذن كانت سمراء متوسّطة الحجم. لم يبدُ عليها الاستياء من الحادثة. أخبرتها أنها كانت في انتظارها منذ زمن، وأنّ في جعبتها العديد من الأغاني التي كانت ترسلها إليها سرّاً. رهان أجابتها أنها كانت دائماً تتساءل عن مصدر الأغاني التي تداهمها، وأنها سعيدة بأن اكتشفت السّرّ. وكذلك جمعت أواصر المحبّة والألفة والأخوّة بينها وبين الأذن..

الرّسالة ذات الخطوط المعوجّة التي تركها في جيب سرواله تفسّر كلّ شيء عدا سبب الانتحار. يحبّ «هزيم الرّعد».. قال.. رسم نفسه وشقيقه تحت سماء مشمسة على مقربة من منزل صغير تحيط به حديقة وعشب وأزهار... أوان كان طويلاً للغاية.. يلامس رأسه السّماء. وشقيقه كان على مقربة منه يمسك بيده وينظر إليه في اعتزاز. قال إنّه يحبّ أمّه كذلك. والطّفل كائن راهن يغترّ بما يسامره به بيتر بان. شنقاً حلّق إلى نيفرلاند. وهو يحبّ عائلته الصّغيرة ومدرسته ويودّع زملاءه.. وشنقاً انفلت من الأمس الذي ألف.

يتساءل الجميع عن سبب انتحاره. تقول أمّه إنها وفّرت له كلّ المتطلّبات: أدواته المدرسيّة.. ملابسه.. يرجّح الجميع أن السّبب يعود إلى المبيت المدرسيّ الذي كان يقطن فيه في تلك المنطقة النّائية. فريق من الصّحافيّين كان قد حلّ باحثاً عن سبب الانتحار في خليط سوقيّ بين العربيّة والدّارجة والفرنسيّة. وأوان يقول إن الموت كان بسببه.. وعلماء النّفس يجمعون بين انتحار الطّفل والشّيخ.. كلاهما فظّ فجّ حاسم وسرّي للغاية. الانتحار للانتحار.. ينتحر الطّفل لأنّه كائن راهن وينتحر الشّيخ لأنّه يمتدّ على خطّ الماضي والمستقبل وحتّى الحاضر، يتخلّص من شكله الزّئبقيّ. يقول الجيران «أولنا صغار وآخرنا صغار». وعلماء النّفس وصلعهم ونظّاراتهم الطّبيّة ومكاتبهم وأجرتهم الباهظة، يجمعون كذلك. ظهر الكثيرون فيما بعد في وسائل الإعلام، وبكت المذيعة بعد التّقرير الصّحفيّ الذي صاحبته موسيقى أحزن كمان في العالم.. قالت ألا إضافة لها.. بكى الجمهور كذلك،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واختلطت الدموع على وجوههم بالشعور والماسكارا والمخاط.

ثمّ شيئاً فشيئاً.. إذا ما راودك الفضول، وكتبت في محرّك البحث غوغل عن ظاهرة انتحار الأطفال في تونس، ستجد الكثير من المقالات الصّحفيّة المقتضبة في أسلوبها الحرفيّ العاطفيّ؛ كما ستعثر من دون شكّ على تقرير المنتدى الاجتماعيّ المكتظّ بالنّسب وبالدّوائر الإحصائيّة الملوّنة. قالوا إن الأمر لم يتحوّل إلى ظاهرة بعد.. قالوا إن المناطق النّائية هي التي تشهد تنامي هذه الحوادث. قالوا إن السّبب يعود إلى غياب تدخّل الدّولة في المناطق النّائية. ثمّ يمكنك أن تجد بعض اللّقاءات الصّحفيّة مع زمرة من المسؤولين و«الأطر السّامية» 😂.. قالوا إنّهم بصدد التّصدّي لهذه الظّاهرة (التي هي في الواقع ليست بالظّاهرة) بالشّراكة مع منظّمة اليونيسف...

في أي حال. انتحر شقيق أوان. كان طفلاً ذا أنفة، شجاعاً ذكيّاً لم يتحمّل الإهانة كالعديد من الأطفال الرّيفيّين الآخرين. تفضّل رهان أن تقول إنّه قد رحل لينضمّ إلى صعاليك «نيفرلاند»، ليحرقوا بنوكاً، ويقلبوا نظاماً رفقة عرائس البحر وجنيّات «الأبسنت». أوان قال إنّه سبب كلّ ما حدث.. إنّه لو عمل كموظّف إداريّ.. لو لم ينخرط في العمل النّقابيّ سابقاً.. لو لم يتعارض مع أساتذته.. لو اختار اختصاصاً رائجاً.. لو انقطع عن الدّراسة في سنّ مبكّرة وعمل في المنجم.. لما انتحر شقيقه.

لم تكن رهان لتتبيّن إن كان الصّمت جينيّاً في عائلة أوان، أم أن ردود فعله وردود فعل والدته أمام الجلل كانتا متطابقتين. لم يتكلّما كثيراً. اكتفيا بتقبّل العزاء في صمت مريع. لم تكفّ أمّه عن البكاء. أوان كان منتصباً في ثبات أمام بيتهم المزري مع رجال عائلته وجيرانه وأصدقائه الذين توافدوا من تونس على مرأى ومسمع من الأذن في جيب سروال رهان. صمته وثباته كانا مخيفين. رهان لم تكن تفهم كيف يمكن للموت أن يحظى بطعم ورائحة وصوت مماثل. يوماً بعد يوم، بدأ الفناء يتسلّل إلى البيت.. ولم يبق غير نفر من الأقارب. عزم أهل والدته على اصطحابها إلى الجزائر معهم عزماً متعصّباً يماثل إصرارها كلّ ليلة على المبيت بجانب قبر ابنها المخضرّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا معنى للموت من دون ليل. يبلغ الغياب ذروته. اللّيل كان دائماً أقسى الأمور التي ترتجف أمامها هي وأذنها الثالثة.. وأوان ليلها كان قاتلاً. لم يتركها تصاحبه هو ورامي مع قارورة المرناق(109) إلى قبر شقيقه البئة. كانا دائماً يعودان فجراً. كلّ فجر كان أفظع من سابقه. كلّ يوم كان يفوق سابقه مرارة. كان حزناً لا نهاية له. أخذت تترقّب مراحل الحداد فيه:

الرّفض: أوان خلال الأيّام الأولى (في سيّارة الأجرة، أمام جثمان شقيقه، يوم الدّفن...).

الغضب: على غير عادته لم يكن غاضباً منها ومن الكلّ، بل من نفسه.

المساومة: لم يقدّم أيّة مساومات ولا تصالحاً ممكناً بعد ما حدث..

الاكتئاب: كانت تخشى الشّكل الذي سيتّخذه هذه المرّة..

التّقبّل: لم تعتقد في قرارة نفسها أنّه سيبلغ هذه المرحلة..

بدأت تجليّات الفناء تقضم المكان المتأكل في توجّس. بدأ المقرّبون في الرّحيل إلى أعمالهم، وحان الوقت لرحيل والدته التي حزمت أمتعتها الرّثّة لترحل إلى موطنها. لم يبق في الغرفة التي يجتمع فيها الحشد المتوافد فضولاً أو لزوماً أو حزناً غير «وجه ربّك ذو الجلال والإكرام».. وصديقه ورهان.

حملوا أشلاء أوان، وأوصدوا البيت، وراح الفناء ينهش المكان نهشاً. وغادروا بعد أن دفنت رهان أوّل أذن تقتلعها باكية، فقد أصرّت الأذن عليها بدفنها، رغم إلحاحها؛ ووعدتها أن تكتب لها كما تعوّدت، وبعد أن ودّع أوان آخر أفراد تبقوّا من عائلته المبتورة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما فتحت عينيها لم تكن تفهم إن كانت تحلم أم أنها استيقظت. هل هي المرأة التي تتذكّر أم هي الذكرى، أم هي الهوس ذاته، أم هي قائمة من الأغاني المحظورة التي لم تنفك ترسلها إليها أذن مسروقة؟ لم تعد تتمكّن من التمييز بين الماضي والحاضر والحلم.

كان الوقت يتشظّى، وهو يهدهدها على متنه هي-و-هو..

كم يستلزمها من خيبة ومن انتظار ومن موت، حتى تقع في حبه من جديد؟ أين أوان؟ لماذا لا يأتي؟ ما الذي فعلته به؟ لماذا لا تعدو حياتها أن تكون حلماً خالياً منه، وهو الذي يقطن تحت جلدها؟

كان السّقف قريباً جداً منها.. يبدو أنّ ما شهداه من المصباح الكهربائيّ قد قرّب بينهما في تآزر. سقف أبيض لا ترى سواه، وهي متمدّدة على الأريكة.. قريب.. يمكنها أن تطأه.

يوماً ما راودها حلم بأنها امرأة ثائرة مكتملة.. وعندما استيقظت لم تكن تعرف أهي امرأة مخذولة مثقوبة حلمت بأنها امرأة ثائرة مكتملة، أم هي امرأة مكتملة تحلم بأنها امرأة مثقوبة؟!!!

كلّ ما كانت قادرة على تبيّن معالمه لا يتجاوز الأبيض الممتدّ الذي يعتمر رأسها.. ورأسها كان يضجّ بالكثير من الأمور التي لا تفقهها.

«طق»! فاجأها صوت انفجار بالون علكة. «طق» زرقاء كوجع العروق البارزة في يدها.. «طق» «طق».. توقّع نبضها أم نبض العالم الذي طردها؟؟ لم يعد لأرقام السّاعة من معنى.. كان يخيفها كلّ ما يتجاوز الأريكة.. كان البرد يعتري ظهرها كلّما انتفضت منه، وكأنما عدد من الخناجر غير المرئيّة تتربّص بها.. كان على ظهرها أن يكون مسنوداً إلى شيء ما.. شخص ما.. ذكرى ما؟؟

كان يبدو أنَ الوقت بصدد المرور بجانبها.. فقد أخذت الفوضى تعمَ المكان يوماً وراء يوم.. وأصبح البياض من حولها يتسخ شيئاً فشيئاً.. غريبة هي العلاقة الجامعة بين البياض وجمودها.. كانت ضبابة ما تكتنفها وتعانقها في حنوّ.. وبدا الأمر وكأنها تضع سمّاعات عالية الصوت صمتاً.. لا علاقة تجمعها بما يحيط بها.. أغمضت عينيها من جديد في إصرار، وأخذت تضرب برأسها على الأريكة في عجز. عليها أن تفرّ من البراثن الزّرقاء. نادت الأذن سزاً.. نادتها في توق.. ومن تحت التّراب.. أسعفتها..

ترانيم كنائسيّة.. كانت تقف أمام المعموديّة.. فستان التّوبة الأبيض الطّويل كان يرفرف.. تشخص قامة رجل الدّين الذي كان موليها ظهره منشغلاً بشعائر السّحر التّحويليّ ليسم الماء بالقدسيّة ويخمد الحريق فيها.. ترنو برأسها الثّقيل عبثاً، وتشيح عن بصرها ستار شعرها النّاريّ لتجد رامي الجالس في الصّفّ الثّاني. رأت طفلاً صغيراً يجلس إلى جانبه، ويجوب ببصره جدران الكنيسة، مأخوذاً بالصّور النّورانيّة والزّخرف المنقوش على الجدران. تحوّل عينيها، وتخرج لسانها للطّفل مداعبة. يجاريها الدّعابة مقلّداً تعبيرها. لا أحد غيرهما كان يشهد طقس عبورها.

قرع النواقيس يتردّد في أصداء المكان. آمين.. رامي يريح ذقنه على ظهر كرسيّ الصّفّ الأوّل الخشبيّ، ويحدّق إليها مبتسماً في صبر المنتظر. تعيد بصرها إلى رجل الدّين، وتغمض عينيها في خشوع... يأخذ رأسها بين راحتيه ويجعلها تحنيه في رفق فوق ماء المعموديّة. يسند رأسها إلى راحته في الهواء، ويغسل براحته الأخرى جبهتها وشعرها بالماء القدسيّ.. يلج الماء فروة رأسها، ويسري بين ثنايا شعرها، ولا يخمد النّيران فيها.. تنتهي التّراتيل، ويفرغ الرّجل من سدل طقس عبورها.. والنّار لا تعترف بالهدنة.. آمين. ينفجر بالون صنعه أوان الصّغير بعلكته. «طق»! ينهره رامي ثانياً: «أوان! هذا يكفي!». تنفتح عيناها متفاجئة. فيقع بصرها على Judy، وهو يطلّ عليها ممسكاً برأسها. يغمز لها بعينه. تنتفض بين يديه، وتحوّل بصرها إلى رامي والطّفل. الطّفل يبتسم لها في براءة. رامي لم تتغيّر ابتسامة الصّبر في محيّاه، ولم تبدُ عليه الدّهشة. يومئ برأسه مشجّعاً. تعيد النّظر إلى رجل الدّين، فإذا بوجه القرد قد اختفى، وحلّ محلّه شيخ وقور يحيّيها في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خشوع. تبادله التحيّة، وتعود أدراجها إليهما.

يغادران الكنيسة ممسكين بيدي أوان الصّغير الذي يتوسّطهما والذي راح يتأرجح مستنداً على قبضتيهما، وهو لا ينفكّ يفجّر بالونات كثيرة تخرج في شكل علكة من فمه. تتردّد أصداء صوتها فيها لتهزّ كلّ جدران ذاكرتها بما قالته عندما خرجوا من الكنيسة، ووطأت أقدامهم شارع الحبيب بورقيبة: «دبّرنا 600 ألف!!!» فيجيبها رامي ضاحكاً، وهو يحيّي تمثال ابن خلدون تحيّة عسكريّة «اااااامين!!». «طق!» بالون آخر ينفجر من فم الطّفل..

ضربت رأسها على الأريكة في حنق مراراً وتكراراً! لماذا يحمل الطّفل المنتحر اسم أوان؟!! ما اسم أوان إذن؟! ما هو الجزء الذي لا تتمكّن من ملامسته؟! شدّت رأسها بكلتا يديها في حنق، فإذا بأحدهم يسحب القبّعة الصّوفيّة التي كانت تعتمرها، ويصرخ في وجهها في استنكار، عندما ينسدل شعرها الأزرق منها:

لا أكاد أصدّق!! أزرق يا رهان؟!

رفعت بصرها في عجز وخفر، لترى الصّوت الذي تحبّ. وحدها راية عندما أطلّت عليها ذاك الصّباح كانت قادرة على بعث بعض من الحركة فيها. كان شكلها مختلفاً تماماً عمّا عهدته. شعرها الأسود الطّويل أصبح قصيراً في طول ذقنها. كانت أنيقة للغاية في سروالها الأسود وقميصها الحريريّ الأزرق بلون بنك البيات، وعطرها الفاخر. جلست على حافة الأريكة التي تتمدّد عليها. حدّقت إليها مطوّلاً في حزن. انتفضت رهان أخيراً من مكانها، وعانقتها في حرارة ثمّ قالت:

أتعلمين أنهم قد غيّروا من ديكور الـ«جي إف كا»؟ حتى إنّهم علّقوا فيه تلك الصّورة الشهيرة لـ«مارلين مونرو»، وثوبها يتطاير وعبارة «جي إف كا» تخرج من فمها في إغواء. أعتقد أنهم أرادوا أن يسخروا من علاقتها بـ«كينيدي».

حدّقت إليها صاحبتها من جديد مشدوهة. فانفجرت ضحكاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لشدَ ما تسرّني رؤيتك! كم تغيّر شكلك! متى عدت؟

أجابتها من دون تفاعل:

- لقد وصلت لتوّي. رامي اتّصل بي، وقال إنك لست على ما يرام.

- رامي اتّصل بك؟! يسعدني أنّكما على اتّصال!

احتدمت الفتاة برهة. ثمّ سرعان ما انخمد التّعبير في وجهها:

- هيا غيّري ملابسك، أريد أن أصطحبك إلى مكان ما.

دخلتْ تستحمّ، بينما أخذت راية تحاول بعث بعض من التّرتيب في المكان. غيّرت ملابسها في تكاسل.. سألتها إن كانت تريد أن تعدّ لها قهوة. أخبرتها أنها تفضّل أن تشرباها في مكان آخر، هو مقهى وحانة الجامايكا الكائنان فوق سطح مبنى نزل «الهناء» المطلّ على شارع الحبيب بورقيبة. مبنى فخم شاهق يطلّ على العاصمة برمّتها في شيء بانوراميّ.

كانت الأرقام الإلكترونية تتصاعد في ترتيب منتظم فوق باب المصعد، عندما كانتا في طريقهما إلى الطّابق العاشر:

- لا أكاد أصدّق أنّك هنا؟! كيف حالك؟ وما هي أخبار العمل؟

- بخير. كلّ الأمور على ما يرام.

- متى اتّصل بك رامي؟

- منذ ما يفوق الأسبوع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا أخبرك أنني لست على ما يرام؟ كلَ الأمور على ما يرام. لا بأس عليَ. ثمَ كيف وصلته أخباري؟ لقد قطعت صلتي بكلَ أصدقائه.. هو.. تعلمين عمَن أتحدث..

حدَقت إليها صديقتها في حيرة. 10. انفتح باب المصعد. كانت الشمس في الشرفة الرَحبة تشارف على المغيب فوق الطَاولات غير المكتظَة. اتَجهتا نحو طاولة قرب السَور الحجريَ الذي جرى تدعيمه بأعمدة حديديَة مؤخَراً. تساءلت عن سرَ هذه الأعمدة الجديدة في قرارة نفسها. التوَث على بطنها ألماً؛ فقد اخترق تيار هوائيَ مفاجئ الثَقب في بطنها. جلست على الكرسيَ، وقالت في تماسك:

- لشدَ ما أنا سعيدة أنَك هنا. كم ستظلَين في تونس؟

- لست أدري بعد..

تذكَرت فجأة تفصيلاً مهمَاً، فسألتها:

- كيف عرفت أين أقطن؟ كيف دخلت مسكني؟

أجابتها في بطء حذر:

- رامي أوصلني وأعطاني المفاتيح.

حملقت فيها مشدوهة. أمسكت صديقتها بيديها في شيء من الحنوَ، وقالت في دفء فاجأها:

- رهان. هل نسيت أنَك تقطنين معه؟

انسكبت على رأسها في موضع تعرفه تماماً، كما تعوَدت أن ينسكب عليها البنزين، صورة لها وهي سكرى في ثوب زفاف أبيض قصير بصدد رفع نخب زواجها من رامي على شاطئ رمليَ. ثمَ انهمرت عليها الصور في وميض أزرق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاطف. لا يكاد يمضي يوم من دون أن تقضّي شطراً منه مع رامي. كانا يبكيان معاً، وكان دائماً بجوارها.. انتظرا راية كثيراً في كنف المصاب الذي حلّ بهما ولم تأتِ. كانت الكوابيس تنهشها كلّما ابتعد عن مخدعها. لم يكن ليفارقها عندما اضطرم الحريق في كامل جسدها. كان يظلّلها.. يضعها على ظهره عندما تسكر، حين لا تقوى على السير. يذكّرها بشيء جميل كانت تخشى أن تفقده إلى الأبد.. كان بطنها مثقوباً منذ البداية. «وين مشيت؟».. كان رامي الخيط الرّفيع الذي يربطها بأحدهم، وهو الذي تدعوه «صاحب الظّلّ الطويل»! منذ زمن بعيد فقدت خلاله شخصاً ما.. أوان؟! أوان طفل ريفيّ كان قد انتحر.. صارت واثقة بذلك. أخو أوان؟؟ أين هو؟؟ أهو من تحبّ؟؟ أهو مصدر الثّقب؟؟ لماذا خلّف فيها ثقباً ورحل؟؟ أين رحل؟؟

راية لا تزال تحدّق إليها في قلق. اغرورقت عيناها بالدموع. ضحكت وقالت في أسى:

- أتصدّقين أنّني نسيت زواجي من رامي؟ كيف أمكنني أن أقدم على فعل مماثل؟ كيف خنتك؟! كيف حدث الأمر معي؟ أأنا سبب كلّ ذلك البياض المجحف المعقّم الذي أسكنه؟

أومأت صديقتها إيجاباً في تمزّق. جالت رهان ببصرها في الأرجاء، وانفجرت ضحكاً! انهمرت الدّموع منها. لماذا هذه الأعمدة الحديد؟! وقفت في مكانها. اتّجهت نحو الجانب الذي يطلّ على المسرح البلديّ.. البالماريوم.. تمثال «ابن خلدون».. ساعة النّظام البائد.. تمثال «بورقيبة» الجديد.. شارع طويل ممتدّ مكتظّ.. الكثير من المارّة الهائمين على وجوههم.. يبدون وكأنّهم كومبارس من «ترومان شو»(110).. لم يكن يبدو على أحد منهم أنّه يعرف وجهته. لم يكن يبدو على أيّ من الزّواحف الكثيرة إيمان ما.. ثقة ما.. نمطيّة.. خروج عن النّمطيّة في شكل ملابس إفريقيّة وعلامات بربريّة وشعور مجعّدة كثيرة.. نمطيّة جديدة تشرب القهوة الصّباحيّة في مقاهي الخارجين عن النّمطيّة، وتحتسي الخمرة ليلاً في حانات الخارجين عن النّمطيّة.. كلّما بلغ أحدهم الساعة الكبيرة عاد أدراجه ناسياً أنّه قد طاف بالمكان منذ برهة.. ذاكرة التّونسيّ قصيرة للغاية.. تُرى ألا يمزّ شقيق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوان من هنا؟ أخذت تحدَق إليهم منتظرة طلعته.. وبدأت تتذكّر أنّه قد كان لها معه قصّة الحزن الأحبّ إليهما..

امرأة مكابرة ورجل زئبقيّ محاصران في شارع الحبيب بورقيبة بين ساعة النّظام البائد ونفاق ابن خلدون وهاوية الجمايكا. شارع الحبيب بورقيبة الممتدّ نمط حياة يتّسم بالنّسيان. تأقلمت ذاكرة روّاده مع طبيعة المحيط، وأضحت لا تتّسع إلاّ لعدد من الثّواني. شارع لا يمحى من الوشم الواسم لفصيلة دمهما. وفصيلة الدّم التي يعرفانها كانت فصيلة دم بحقّ. تنبض وتنضح حرارة في كلّ التفاصيل التي تجبلها. وكانت فصيلة دمهما تبعثر كرياتها في كلّ الاتّجاهات التي لا تعتريها، وتترك المجال أمام اللّعبة لتسقط الكؤوس والقنّينات التي تعتريها. كانت تقول إن لهما إيقاع الدّم ذاته، وكان يقول إن لهما فصيلة الدّم ذاتها، وإنّهما قد خضعا لعمليّة جمع أعضاء وتصفية دماء خاصّة جدًّا ذات خلق. وكانت تضحك معقّبة على كلامه أنّهما من ذوي الاحتياجات الخاصّة، وكان يضحك بدوره ويقول: «أجل، أعتقد ذلك». كان ضحكهما يتعالى كثيراً في وجه القدر، ويرتطم بجدران الماء والسّماء ويرحل في كلّ الأرجاء، ويدوّي في سخط على حين غفلة من الدّنيا، كهزيم من الرّعد.

كفّت عن الضّحك عندما لامست البحر في قفزتها من على الجبل الصّخريّ.. وارتجفت شفتاها وهي تهمس في تقطّع:

- «رعد»..

أومأت راية برأسها في عجز.. التفتت إليها رهان مفجوعة هازّة الأعمدة الحديد، محاولة اجتثاثها، وسألتها في اهتياج:

- لماذا دعّموا السّور بالأعمدة الحديد؟!!

والتوّث على بطنها من جديد!! وتذكّرت كم تغيّر بعد موت أخيه.. وتذكّرت آخر لقاء جمعها به..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانا في مطعم «بحرون ملك الدجاج» فهو الوحيد الذي يلبّي طلبات الزبائن الذين تأخر عليهم الوقت. كان مطعماً متواضعاً صغير الحجم، ولا يتجاوز عدد الطاولات فيه العشر. يتميز بالخدمة السريعة وبالغطاء البلاستيكي البذيء الذي يغلّف الطاولات، وبالخبز الذي يوضع في شكل نصف باقات أمام الحريف. أهمّ ما يميّزه من مناقب كان يتمثل في طبق «ربع دجاج». «ربع دجاج» كانت كنية تلازم الطلبة الدساترة في ما سبق، إذ كان يمثل المكافأة التي يحصلون عليها بعد رفع كلّ تقرير مفصّل عن الحركات الاحتجاجيّة في الجامعة. وكان هذا الطبق يتألّف من ربع دجاجة كانت قد صلّيت ناراً ذات لهب، وهي تدور عدداً من الدورات حول نفسها، ومن «السوس الذي يقدّم»(111) رفقة هذا الربع. هي تحبّ هذا الطبق لأجل «السوس» الذي يتراوح حسب اختيار الزبون بين طبق جلبانة ولوبيا وكمونيّة. كانت تحبّ مرقة الخضرة على وجه الخصوص، إذ تبعث فيها عدداً من العواطف التي لا توصف. التمعت عيناه أمام طبق الجلبانة الذي تخيّره، وراح يأكل في نهم، ابتسمت في دفء، عندما قال:

- أتعلمين أنني أحبّ الجلبانة أكثر من البيرة؟!

كانت أحلامهما بسيطة. وكان موته سبب وجعها وفاجعتها وسبب البنزين والجبل الصخريّ والاحتراق.. وفهمت ما الذي أوقد فيها النار يوماً!!

انفجرت ضحكاً، ثمّ انهمرت الدموع من عينيها.. كانت: «تبكي وتضحك لا حزناً ولا فرحاً كعاشق خطّ سطراً في الهواء ومحا»(112).

لقد أحبّت رجلاً واثقاً كان قادراً على الإيمان.. كذلك ألقى رعد بنفسه من الجامايكا، ولم يكن أوّل طفل ولا شاب يبتلعه الموت في تونس على اختلاف التعلاّت والتجليات الزرقاء.. بحراً أو زطلة أو سكتة قلبيّة أو ريفا.. شنقاً أو هاوية أو غرقاً.. أو انفصاماً أو نسياناً.. مات رعد ومات مروان ومات عدنان والكاهنة ومجدي. وفي كلّ يوم تودّع تونس شبّانها.. راية تقف خلفها في قلق. وها أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحدَهم يقف قبالتها ويرمقها في شرر. هي لا تلومه فقد كانت له أذن واحدة.

لم تفهم كيف خطر ببالها بطل «عندما كنت عملاً فنياً»(113) وهو بصدد الإقدام على الانتحار دمامة. فمن منا لم يتمنَ يوماً أن يصبح شيئاً؟! شيئاً موضوع إعجاب!! الفتى الذي سرقت منه أذنه يقف متربصاً بها. يغمره ظلَ طويل فجأة فيطلَ من خلفه رامي. تنتابها أغنية «صقور الأرض»(114).. تأخذ نفساً عميقاً وهي تردَد في نفسها: «شرف الوطن.. أقوى منا ومن.. ما قد يجول بفكرنا في أيّ زمن..»، وتلقي في وجهيهما بالابتسامة الجانبيَة، وتقول «يلزمنا ناقفو لتونس»(115).

-النّهاية-

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Notes

(1) هو الشّارع الرّئيس في تونس العاصمة. شهد أكبر الأحداث التّاريخيّة الّتي عرفتها تونس من انتفاضة العمّال وانتفاضة الخبز حتّى تظاهرة 14 جانفي 2011.

(2) أحد الطرق المتفرّعة عن شارع الحبيب بورقيبة.

(3) https://www.youtube.com/watch?v=3UhxMK9-ExA

(4) بدل الإيجار.

(5) الوجه الخالي من التعابير.

(6) جعة.

(7) نوع من أنواع السّجائر التّونسيّة. وعبارة مضروب تعني مغشوشاً.

(8) أحد الشّوارع المتفرّعة من شارع الحبيب بورقيبة.

(9) اعتصام القصبة 1 (23 جانفي 2011) و2 (20 فيفري 2011): إحدى كبريات عمليّات الاحتجاج الجماهيريّ الّتي استطاعت عبر احتلال ساحة القصبة المشرفة على قصر الحكومة، إطاحة أوّل حكومة انتقاليّة تقلّدها أزلام النّظام البائد وتحقيق مطلب انتخاب مجلس تأسيسيّ.

(10) https://www.youtube.com/watch?v=2xu81PyqN5c

(11) بمعنى رديء السّمعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(12) عبارة مقتبسة من أغنية «داوينا» لمجموعة «لاباس» ومعناها إجمالاً أن كلّ الحالات الّتي يتموقع فيها الشّخص تضيق به.

(13) الأجرة.

(14) مقطع من أغنية «داوينا» لمجموعة لاباس الجزائرية بمعنى «أما أنا فقد بصق علي الأميركيون».

https://www.youtube.com/watch?v=PQ2eKimS3ZM

(15) كلمة تنتمي إلى اللهجة الدّارجة التّونسيّة المعاصرة، تعود إلى الفرنسيّة ومعناها النظام.

(16) https://www.youtube.com/watch?v=t9NALwUYuoA

(17) https://www.youtube.com/watch?v=GBMa5afFmgU

(18) قول مأثور في الأوساط السّياسيّة والنّقابيّة اليساريّة التّونسيّة يعود إلى المناضل نبيل بركاتي الّذي توفّي تحت التّعذيب عام 1987، والّذي ألقيت جثّته قرب سكّة قطار مصحوبة بمسدّس للإيهام بانتحاره.

(19) من نشيد المنظّمة النّقابيّة الطّلابيّة «الاتّحاد العام لطلبة تونس» الّذي ينوّه بأبطال تونس الشّهداء:
https://www.youtube.com/watch?v=-7AJ_BqB2AA

(20) قصيدة اتّخذ خلالها بدر شاكر السّيّاب قناع الشّاعر الإسبانيّ الشّهيد لوركا باعتبار الحريّة مطلباً عالميّاً.

(21) شخصيّة روائيّة شهيرة في الأدب الإنكليزيّ الكلاسيكيّ لجين أوستن، تعود إلى رجل ثريّ يتّسم بالبرود والانزواء والتّعالي والغموض ظاهراً وبالخجل والنّزاهة والشّهامة باطناً.

(22) بطل الرّواية الإنكليزيّة الشّهيرة «مرتفعات واذرينغ»، الّذي يدفع به الحبّ إلى الهوس والانتقام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجنون.

(23) ابن خالة جولييت في مسرحيّة روميو وجولييت. وهو رمز الكره وهو قاتل صديق روميو «ماركوسيو» وهو من قتله روميو فتسبّب في نفيه.

(24) بطل رواية العطر. شخصية عطّار غرائبيّة قبيحة تتمتّع بحاسّة شمّ حادّة من دون أن تمتلك رائحة. تتطوّر عبر الرّواية في مجتمع يمقتها لفقرها وبشاعتها، غايتها شحذ حاسّتها متجرّدة من كلّ وازع أخلاقيّ ومتحرّرة من قيم الشرّ والخير حتّى تتوصّل إلى استخراج عطر يسم ذاتها من خلال قتل الحسناوات لترتقي إلى مصاف الإله.

(25) عنوان قصيدة للشّاعر الكنديّ ليونارد كوهين «بعمق ألف قبلة»:

https://www.youtube.com/watch?v=boaBzKqGqUw

(26) انتفاضة شهدتها منطقة الرّديف المنجميّة بولاية قفصة، اندلعت منذ جانفي 2008 وتواصلت على مدى أشهر ضدّ نظام بن علي، إثر الإعلان عن نتائج انتداب أعوان وكوادر شركة فوسفات قفصة الّتي تميّزت بالمحسوبيّة. أسفرت عن عدد مهمّ من القتلى واجهه النّظام بتعتيم إعلاميّ.

(27) إمطار قطاع غزّة بالصّواريخ على مدى خمسة أيّام كارثيّة في فيفري 2008.

(28) هستيريا جماعيّة غريبة ضربت سكّان مدينة ستراسبورغ في فرنسا سنة 1518 دفعتهم إلى الرقص من دون هوادة عدداً من الأيّام، حتّى توفّي عدد منهم متأثراً بنوبات دماغيّة وسكتات قلبيّة.

(29) هي رمز تاريخيّ لقائدة عسكريّة وملكة أمازيغيّة حكمت شمال إفريقيا وقفت في وجه امتداد المسلمين بشمال إفريقيا طويلاً، وعرفت بسياسة الأرض المحروقة.

(30) يشبّه ديكارت الفلسفة بشجرة: جذورها وأصلها الثّابت الميتافيزيقا وجذعها علم الطّبيعة، وأغصانها الكبرى المتفرّعة عنها هي الطّبّ والميكانيك والأخلاق.

(31) https://www.youtube.com/watch?v=VSDywp5ESgs

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(32) مقطع من أغنية La bohème بمعنى: «كنا شباباً.. كنا مجانين..».

(33) محطّة القطار في العاصمة.

(34) «هلاّ توقّفت عن صنيعك أيّها المواطن وتركتني أواصل عملي؟».

(35) هيّا اصعدوا، وجهتكم هي وجهتي.

(36) أغانٍ شعبيّة تونسيّة.

(37) ضاق ذرعي بالكلب.

(38) أجل يا بنيّ الأمر كذلك.

(39) لقد تدهورت الأحوال أكثر ممّا سبق بعد الثّورة. ارتفعت كلّ الأسعار من البنزين إلى الخضر فالخبز والفواتير. كلّ الأسعار قد ارتفعت إلاّ سعر الإنسان قد انخفض.

(40) لا بأس علينا. كلّ البلدان الّتي عرفت الثّورات قد عرفت فترة انكماش اقتصاديّ في البداية، ثمّ انفرجت أوضاعها.

(41) بنيّ لا تنكمش أوضاع أحد غيرنا. لسنا سوى قرابين اقتصاديّة.

(42) أعلم. أعلم أن المتضرّر الوحيد من كلّ التّغيّرات الّتي قد تطرأ لا يعدو أن يكون العامل البسيط، ولكنّ العامل البسيط هو من يكتب التّاريخ من دون أن تذكره صفحاته، وهو الّذي لا يهاب الموت، إذ لا يملك أمراً يخشى خسارته. ثمّ لا تنسَ أن الثّورة قد لقّنتهم درساً لا ينسى؛ فأصبحوا متوجّسين منه أيّما توجّس.

(43) فليكن من نصيبكم كلّ ما حرمونا منه، فقد انتهى أمر جيلي على كلّ حال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(44) أيّ إنّك تحمل على عاتقك أهمّ جزء من العمل، من دون أن تنال الاعتراف حتّى. يا لهذا الحال! من الأفضل لك أن تصبح مغنّياً! لا تزد الطّين بلّة وتختبئ في أغنية فالبشر جميعهم مغيبون ومضطهدون! وأنت لا تزال بعد شاباً! فلماذا تتخيّر أن تظلم نفسك بشكل مماثل؟!

(45) فلنعد إلى البيت.

(46) خرافة المرأة المنتحبة. وهي خرافة من جذور مكسيكيّة تروي قصّة شبح امرأة يلبس البياض ويمضي في الشّوارع كلّما اكتمل القمر منتحباً. ترتبط هذه الخرافة بعدد من التّأويلات المختلفة، فمنها من يذكر أنّ الشّبح يعود إلى فتاة شابّة توفيت ليلة زفافها، وهي تعود إلى الأرض كلّما اكتمل القمر حتّى تودّع حبيبها، ومنها من يعتبر أن المرأة كانت فيما مضى فاحشة الثّراء وعندما فقدت ثروتها قتلت نفسها وأولادها فحلّت عليها اللّعنة وجعلتها تعايد الأرض كلّما اكتمل القمر. ومنها من يعتبرها فتاة خانت وطنها بزواجها من جنديّ مستعمر قتلها بعد الزّواج وهي تنتحب كلّما اكتمل القمر لتكفّر عن ذنوبها. ألهمت هذه الخرافة أعمالاً فنيّة مختلفة نذكر منها أغنية شافالا فرغاس:

https://www.youtube.com/watch?v=fcxNFUPD3WE

(47) رواية غاتسبي العظيم هي أحد أهمّ مؤلّفات الأدب العالميّ الّتي تعكس مأساة الفرد أثناء العقد الثّاني في الولايات المتّحدة، وهو يهرول وراء ما يعرف بـ«الحلم الأمريكيّ». مجموعة من الألوان الباهرة والأوشحة الحريريّة والمجوهرات الكريمة والسّيّارات الفخمة تؤثّث قصّة شاب معدم يكوّن ثروة طائلة بطرق غير شرعيّة حتّى يستعيد حبيبته من زوجها الثّريّ. يموت الشّابّ في نهاية الرّواية وهو بصدد انتظار مكالمة حبيبته ليفرّا معاً.

(48) ثلاثيّة الكاتب الياباني هاروكي موراكامي، تعرض علينا قصّة حبيبين تائهين يبحث أحدهما عن الآخر تحت سماء عالم سحريّ مزدوج القمر.

(49) في الرّواية الإنكليزيّة مرتفعات واذرينغ، تتدهور حياة البطل هاذكليف عندما يستمع خلسة إلى نصف ما قالته عنه حبيبته فيمضي في حال سبيله نحو رحلة طويلة من الوحدة والكره والانتقام.

(50) إحدى أهمّ روايات أدب السّجون العربي لعبد الرّحمن منيف، تعرض علينا عذابات السّجين السّياسيّ رجب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(51) رواية ليلة السنوات العشر للأديب التونسي محمد صالح الجابري، يلتقي خلالها البطل مروان ولمياء بعد عقد من الغياب فيعرضان علينا الأحداث السياسية التي عاشتها تونس إزاء الاستعمار.

(52) https://www.youtube.com/watch?v=p5TH1HtbNEI

(53) الأمين العامّ لحزب الديمقراطيين التقدميين بتونس، وأحد مؤسسي الجبهة الشعبية. كان من أشدّ منتقدي أداء الحكومة الائتلافية في تونس. اغتيل على أيدي مجهولين بطلقات ناريّة أمام بيته يوم 6 فيفري 2013، ما أدى إلى استنكار شعبي عارم، وإلى تظاهرات حاشدة أمام أول اغتيال سياسي تعرفه تونس بعد الثورة.

(54) أو اعتصام الرحيل: اعتصام انطلق يوم 26 جويلية 2013 بعد تشييع جنازة محمد البراهمي أمام مقرّ المجلس التأسيسي. طالب الاعتصام بحلّ المجلس التأسيسي وحكومة علي العريض، وضمّ مجموعة من الحركات الشبابية والأحزاب والتكتلات السياسية من قبيل الجبهة الشعبية ونداء تونس.

(55) عضو سابق في المجلس التأسيسي عن التيار الشعبي، عرف بمعارضته الشرسة لحركة النهضة. اغتيل أمام بيته كذلك على أيدي مجهولين بطلقات ناريّة في 25 جويلية 2013.

(56) ذكرى سوداء في تاريخ تونس ما بعد الثورة، حيث حيّت قوّات البوليس ومجموعة من الميليشيات التابعة لها بأمر من وزير الداخلية آنذاك علي العريض الموالي لحركة النهضة والذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة، تظاهرة سلميّة خرجت للاحتفال بعيد الشهداء ولاستعادة ذكرى شهداء الثورة وجرحاها بالقمع والعنف الشديد بعد أن أصدر قرار منع التظاهر بشارع الحبيب بورقيبة الرمز.

(57) https://www.youtube.com/watch?v=Sp3qUwsBzHA

(58) أحد أبواب مدينة تونس العتيقة. يضمّ حالياً فئات اجتماعية مهمّشة وفوضى من التجارة الموازية.

(59) صراع مسلّح اندلع في الجزائر سنة 1992 بين النظام الجزائري وفصائل إرهابية موالية للجبهة الإسلامية للإنقاذ والإسلام السياسي. أسفر هذا الصراع عن عشرات المذابح التي استهدفت المدنيين بتهمة التكفير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(60) قصيدة للشّاعر والرّوائيّ الأمريكيّ المعاصر تشارلز بوكوفسكي:

https://www.youtube.com/watch?v=3Cwtj-Id0Rg

(61) عبارة فرنسيّة تتكرّر بكثرة في مراكز الاتّصالات عندما يطرح الممثّل التّجاريّ هاتفيّاً سؤالاً على الزّبون ومعناها: «عذراً على التّطفّل».

(62) التطفّل.

(63) من طرفها.

(64) «إنقاذ الجندي رايان»، فِلم حربيّ من إخراج المخرج الأمريكيّ ستيفن سبيلبرغ تسقط خلاله أمّ على الأرض بعد أن تتلقّى خبر وفاة أبنائها الجنود الثّلاثة.

(65) مصطلح من أصل لاتينيّ مرتبط بالقرصنة الإلكترونيّة.

(66) فقرة مقتطفة من فِلم «Fight club» للمخرج «دافيد فينشر»، تلخّص حالة ضياع يعيشها جيل مهمّش لا غاية له: «يا رجل! لسنا سوى أبناء كان بودّ التّاريخ وأدهم. لا يسعنا الحلم ولا التّموقع. لا نحظى بحروب لنخوض غمارها، ولا حتّى بخيبة لنتحمّل وزرها. حربنا الكبرى هي حرب روحيّة بالأساس... وخيبتنا الكبرى لا تعدو أن تكون غير حياتنا ذاتها. نشأنا جميعنا ونحن مشدوهون بما يبثّ على شاشة التّلفاز، وتعلّمنا أن نعتقد بأنّنا يوماً ما سنصير جميعاً ما يريدون، أصحاب مليارات أو عمالقة سينما، أو نجوم روك. ولكنّنا لن نكون يوماً لا ما أرادوا ولا ما أردنا..».

(67) مناظرة وطنيّة تونسيّة يجتازها الطّلبة الرّاغبون في الالتحاق بسلك التّعليم، عرفت نتائجها قبل الثّورة بالوساطة والانحياز.

(68) دعيني وشأني أتوسّل إليك.

(69) عبارة من اللهجة الدّارجة التّونسيّة تعني «ضعيفة الحال».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(70) كاتم الصوت.

(71) الماجنين.

(72) فِلم من إخراج «توم هوبر» صدر سنة 2015، ويروي قصّة الرّسّامة الدّنماركيّة «ليلي ألب»، وهي أوّل شخص يخضع لعملية تحوّل جنسيّ في التّاريخ.

(73) غرفة الخردوات.

(74) كلمة فرنسيّة تعني «بطّة» وحرف d فيها لا يُنطق.

(75) فراشة وورقة، وحرفا «ll» في الفرنسيّة يُنطقان كأنهما حرف ي «y».

(76) مسلسل كرتونيّ صدر في التّسعينات:

https://www.youtube.com/watch?v=ZlVFegYA0fo

(77) قنب هنديّ.

(78) المركز التّونسيّ لمكافحة السّرطان.

(79) أغنية «»citizen cope لـ «»salvation

https://www.youtube.com/watch?v=i_2Zz4NJ328

(80) فِلم كرتون إسبانيّ جرت دبلجته إلى العربية في مركز الزّهرة للإنتاج السّمعي البصريّ في التّسعينات:

https://www.youtube.com/watch?v=E1vOwT3xNjA

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(81) يبدو أن الفهد الورديّ يريد أن يدخّن معنا.

(82) وبر الفهد الورديّ ورديّ أيّها الغبيّ!

(83) نوع جافال تونسيّ تعلو قواريره صورة لقرد ضاحك.

(84) من حسن حظّنا أنّنا اكتفينا بشارة رياح الشّمال، فما الّذي كان سيطرأ علينا لو نحن تغنّينا بشارة فتى الأدغال؟!

(85) لانقضّ علينا باقيرا على الأرجح! صديقي! يبدو أن السّلعة الّتي اقتنيناها مغشوشة!

(86) من المؤكّد أن قرد الجافال حيوان طاهر. أليس كذلك؟!

(87) ضاحية من الضّواحي الفاخرة في العاصمة التّونسيّة.

(88) سجائر مهرّبة من الجزائر.

(89) سوق يوميّة من أسواق العاصمة عرفت ببيعها للأنتيكا والخردة والبضائع النّادرة.

(90) سوق يوميّة تحاذي سوق العصر، وتحتوي على بضائع متعدّدة.

(91) عمت مساء.

(92) رفقة طيبة.

(93) رائحة التراب عندما يهطل المطر. مقطع من أغنية سعاد ماسي «مسك الليل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(94) شارع يتفرّع عن شارع الحبيب بورقيبة.

(95) أحد أحياء تونس العاصمة، يقع شمال شارع الحبيب بورقيبة. يتميّز بمعماره الفرنسيّ.

(96) منطقة تقاطع خطوط المترو الخفيف بتونس.

(97) شارع رئيسيّ متعامد مع شارع الحبيب بورقيبة، تتمركز فيه أهمّ مقارّ ومراكز الماليّة بتونس.

(98) انفجار محمّد الخامس: في 24 نوفمبر 2015: انفجرت حافلة كانت تقلّ الأمن الرّئاسيّ بتونس قرب مقرّ الحزب الحاكم السّالف. أسفر الانفجار عن عدد من القتلى والجرحى التّابعين للأمن الرّئاسيّ.

(99) وسط العاصمة.

(100) نوع من الكحول التونسي ينسب إلى معتمديّة تيبار بولاية باجة من الشّمال التّونسيّ.

(101) مشروع قانون المصالحة الّذي لا يزال يثير الجدل في تونس، يهدف إلى تحقيق عفو عامّ عن الموظّفين العموميّين والمسؤولين السّياسيّين ورجال الأعمال المتورّطين في جرائم ماليّة، مقابل تعويض الدّولة عن أموالها المنهوبة.

(102) كلمات من شارة المسلسل الكرتوني هزيم الرّعد:

https://www.youtube.com/watch?v=g17jemRFzbM

(103) نمط موسيقي تونسي.

(104) أنت هنا أيّها السّافل؟! لقد بحثت عنكم في كلّ مكان!! كيف تقفل هاتفك!!

(105) ما خطبك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(106) أملك كانت تحاول أن تتصل بك منذ الصباح.

(107) أهي بخير؟!

(108) لست أدري. أسرع واتصل بها.

(109) نوع من الكحول التونسي، ينسب إلى منطقة مرناق.

(110) فلم للمخرج بيتر وير، صدر سنة 1998. هو يروي قصة رجل ينعم بحياة هادئة في عالم مزيف، لا يتمكن من اختراق أفقه.

(111) صلصة.

(112) «يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا

كعاشقٍ خط سطراً في الهوى ومحا»

بشارة الخوري

(113) عنوان رواية للكاتب الفرنسي إيريك إيمانويل شميست، تروي قصة رجل دميم يحاول الإقدام على الانتحار، فيقنعه نحات شهير بتحويله إلى تمثال آدمي على غاية من الجمال للبيع وللعرض.

(114) شارة فلم كرتون ياباني غرض في التسعينات:

https://www.youtube.com/watch?v=FZL5HilYEAY

(115) «لازمة شعرية» لخطاب حماسي، ألقاه رئيس الحكومة التونسية يوسف الشاهد أمام مجلس النواب.

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner